فضاءات الثقوب

الأسير أكرم القواسمي

فضاءات الثقوب

قصة واقعية

الاسير أكرم القواسمي

الطبعة الاولى:٢٠٢١

جميع الحقوق محفوظة

مركز بيت المقدس للادب
هاتف :٠٢٢٤١٦١٢٠
adabmqds2013@gmail.com

الغلاف للفنان محمد سباعنة

فضاءات الثقوب

الإهداء

خمس وعشرون سنة.. وما زالت أحقاد المحتلين تستلب حريتي وتُكبل أضلعي، وتحجب عن مقلتَيَّ نور صباحكم الجميل، وسحر بسماتكم الصادقة..

خمس وعشرون سنة.. توالت الحوادث العِظام على فؤادي، وتعاظمت الأشواق لكما، دون أن تجد لها منفذاً أو سبيلاً يحررها من أسرها.

خمس وعشرون سنة.. ورغم ما في السجن من هموم وغموم، إلا أن ثلاثة أمور كانت أثقل وطأة وأشد قسوة على نفسي، رحيلك يا سند دربي ونور قلبي يا والدي العزيز الغالي.. وبُعدي عنكِ يا طاهرة القلب وحبيبة الروح ورفيقة الدرب يا والدتي العزيزة الغالية.. وبُعدي القسري عنك يا رمز عقيدتنا ومهجة قلوبنا يا أقصانا الحبيب.

خمس وعشرون سنة.. وكلي يلهج بالدعاء، لكما دونما فتور أو ركود، بأن يرحمكما الله كما ربيتُماني صغيرا.

خمس وعشرون سنة.. ما باتت نار المشاعر تحتمل أن تبقى أسيرة النفس، حبيسة القلب، فإذا بها تتفجر كلماتٍ مخطوطة، معبرة عن القليل القليل مما يختلج أحاسيسها المكبوتة بحرقة البعد، والمثقلة بألم الفراق لأُرِيَ العالم أجمع معنى الصبر الجميل، والثبات، والتضحية منكما.

وفاءً وبِراً لكِ أيتها الصابرة بلا ضجر، والمحتسبة بلا نكران، والداعية بلا قنوط - أمي الحنونة- وبِراً وحباً يا عزوتي ومنبع فخري ومجدي يا والدي الغالي.

إليكما أهدي.. وعنكما أكتب.. وبكما أهتدي..

فجزاكما الله بصبركما.. وثباتكما.. وحُسن تربيتكما خير الجزاء.

فضاءات الثقوب

بقلم: عبد المجيد حامد – جامعة بير زيت

بعد أيام من الأنفاس الملتهبة التي أجَّجتها في صدري هذه السيرة الروائية للكاتب الأسير المقدسي أكرم القواسمي، وجدت نفسي أمام طلبتي في جامعة بير زيت، أُحدثهم عمّا أسرَني في هذه السيرة، فساد القاعةَ صمتٌ وخشوع، شقَّه نحيب إحدى الطالبات، من شدة لوعتها لما سمعت، فاحترتُ بين أن أُكمل لهم الحديث، وبين أن أتوقف عنه مراعاةً لبكاء الطالبة، فما كان منها نفسها ومن زملائها إلا أن أشاروا عليّ باستكمال الحديث، فأكملت جزءاً يسيراً منها، ثم أخذوا عليّ العهد بأن أُخبرهم عندما تصدر الرواية منشورة ليطالعوها.ولقد خطر ببالي في أثناء قراءتي لهذه الفصول الدامية، ذلك الفرق الشاسع بين لغة الأُدباء التي تجعل من الموقف الصغير مشهداً مكثفاً كبيراً، وبين لغة هؤلاء الأسرى في قلب العاصفة، وهم يقدمون لنا المشاهد المعقدة في لغة يسيرة شفافة غير متكلفة، متحررة من ديباجة البلاغة، وتراكم المفردات.استطاع كاتب هذه السيرة أن يغامر، لأن تصوير هذه المشاهد وتصديرها لسطور مكتوبة هو عمل مغامر، فليس من السهل اقتحام هذه المساحة من الوجد، وهذه القداسة من العلائق، فهي اعتكاف في محراب المشاعر والأفكار والمفاصل الحساسة في تجربة أي إنسان، خاصة عندما تكون التجربة كياناً بين جناحَي الأب والأُم.

كانت مهمتي في هذا العمل تتمثل بالتحرير اللغوي للنص، وتنقيحه من الأغلاط اللغوية والإملائية، وتعديل الصياغة وما شابه، غير إني وجدت نفسي تألف هذا النص وأبطاله ولغته ودراميته، فحرصت على أن يكون تقديمي له منسجماً مع انسيابيته وسلاسته ورِقته وشفافيته، ولعل صدق الكاتب بادٍ في متون السيرة، فلا قيمة للنقد المنهجي أمام وصف الكاتب للوداع الأخير عندما زاره والده المغفور له – بإذن الله – زيارة الوداع، وهما يعلمان يقيناً بأنها زيارة الوداع.

فهو على الرغم من سرديته المباشرة، ولغته العادية، نص اقتحامي يتمكن من النفس ويأسر القلب ويصبح حديثك اليومي مع الآخرين، فأوجزتُ في تقديمه لأتركه يُقدّم نفسه من خلف ستائر العتمة، ينتفض حياةً من مقابر الأحياء.

أصلها في الخليل وفرعها في بيت المقدس

يتميز الشعب الفلسطيني بالكثير من الخصائص، ولعل أبرزها التقاربُ الطبقي بين أفراد المجتمع والذي يتمثل بالطبقة المتوسطة، فضلاً عن التقارب الثقافي، والتشابه في عاداته وتقاليده التي عُرفت بالبساطة والتآخي والطيبة والتعاون المجتمعي، وعائلتي -عائلة القواسمي- هي واحدة من تلك العائلات الفلسطينية التي تمتاز بهذه الخصائص.

تقطن عائلتي في مدينة القدس، فقد قدم والدي إلى القدس قبل احتلال الصهاينة لها في العام (١٩٦٧) من مدينة خليل الرحمن، وبهذا فقد شرفنا الله عز وجل أن نكون من المرابطين على الثغور الأولى، حُماةً للقدس والمسجد الأقصى المبارك.

ولد والدي إبراهيم محمود أحمد « تاج الدين» القواسمي (رحمه الله) في مدينة خليل الرحمن في حارة الشيخ عام ١٩٤٢م قبل قيام دولة الكيان الصهيوني بست سنوات، وقد درس والدي (رحمه الله) في مدارس هذه المدينة المباركة حتى الصف السادس الابتدائي، وهو من أسرة مكونة من أحد عشر فرداً، هو أكبرهم من الذكور، وقد ترك دراسته كي يساعد والده في إعالة الأسرة، وكانت صنعته مما اشتهرت به مدينة الخليل، وهي صناعة الأحذية.

وفي نهاية سنوات الخمسينيات خرج والدي (رحمه الله) للعمل في مهنته في مدينة القدس، وكان يتنقل ما بين مدينة الخليل ومدينة القدس بشكل يومي، ما حدا به في مرحلة ما بأن يستأجر منزلاً في القدس ليكون قريباً من عمله، ويكفيه عناء السفر والتنقل اليومي ما بين الخليل والقدس، حيث استقراره الأكبر كان في القدس، وقد كان يذهب لعائلته زيارة مرة أو مرتين في الشهر لمدة يوم أو يومين ثم يعود لعمله في القدس، وقد بقي على تلك الحال حتى اقتحم الاحتلال الإسرائيلي مدينة القدس في العام (١٩٦٧) وقام بالاستيلاء عليها واحتلالها.

وبعد سيطرة الاحتلال على مدينة القدس ومن ثم ضمها إلى دولة الكيان الصهيوني، قامت «إسرائيل» بعملية تعداد للسكان، وكل من كان يقطن فيها تم إعطاؤه بطاقة الهوية الإسرائيلية «الهوية الزرقاء»، وهكذا حصل والدي (رحمه الله) على هوية القدس، ما أعطاه حق الإقامة الدائمة فيها، حسب قوانين الاحتلال.

تزوج والدي (رحمه الله) من والدتي مليحة محمود إسماعيل أبو اشخيدم في نهاية الستينيات، وهي أيضاً من مدينة الخليل من مواليد (١٩٥٠م)، ودرست أيضاً في مدارسها حتى الصف الثالث الإعدادي (التاسع)، وهكذا حصلت والدتي أيضاً على بطاقة هوية القدس ضمن قانون لم الشمل الذي كان سارياً آنذاك في قوانين المحتل، وبهذا الشكل أصبحت الإقامة الدائمة لوالديّ في مدينة القدس وتحديداً في حي رأس العامود، الذي يقع بجوار المسجد الأقصى من الناحية الشرقية وهو ملاصق لحي سلوان، وفي هذا الحي أنجبا كل أفراد أسرتي المكونة من أحد عشر فرداً، سبعةً من الذكور وأربعاً من الإناث، وكان ترتيبي بينهم الثالث، حيث كان المولود البكر للعائلة هو أخي محمود المولود في عام (١٩٧١م)، ومن ثم أخي الثاني أحمد الذي ولد في عام (١٩٧٢م)، وثم ولادتي التي كانت في (١١-١-١٩٧٤)، وأصغر أشقائي رقم (١١) هو طارق الذي ولد في عام (١٩٩٤م).

وقد عاشت عائلتي كباقي العائلات الفلسطينية المقدسية، عائلة عادية محافظة تحرص على إعالة أبنائها، وعلى أن يتلقى الأبناء التعليم والتربية الحسنة، وكان والدي (رحمه االله) يحرص في كل مناسبة على أن يأخذنا إلى المسجد الأقصى منذ نعومة أظفارنا كباقي العائلات المقدسية، فتعزز في نفسي حب الوطن، وتعظيم المسجد الأقصى منذ الصغر.

ومن زاوية أخرى كانت لدى الآباء ممن عاصروا وشاهدوا القتل والتهجير والتشريد فيما أطلق عليه النكبة ١٩٤٨ ثم النكسة ١٩٦٧ هاجس الخوف، مما قامت به قوات الاحتلال الإسرائيلي من قتل وتشريد وهدم منازل واعتقال وعمليات تطهير عرقي ممنهجة، لذلك فقد كانوا يتابعون حياة أبنائهم بحرص كبيروعند اندلاع انتفاضة الحجارة في ١٩٨٧م، كنت أشارك في كل مواجهاتها وفعالياتها ضد الاحتلال الإسرائيلي، فقد تعزز لديّ ولدى أبناء جيلي أننا نستطيع صد ممارسات الاحتلال ضد أبناء شعبنا، وتحديداً في ما يخص مدينتنا المقدسة (القدس) والدفاع والذود عن حِمى المسجد الأقصى، مهما كلفنا الأمر من ثمن.وهكذا سار واستمر حالي وحال عائلتي، حتى اعتقالي من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي بتاريخ (١٩٩٦/٣/٢٧)، فكان اعتقالي نبأً وقع على أُسرتي كالصاعقة، ومنذ ذلك التاريخ بدأت رحلة المعاناة الصعبة والتي واجهها والداي كما باقي العائلة بتحدٍ وثبات، ولم يفتر هذا التحدي عند والدي (رحمه الله) حتى توفاه الله عز وجل.

أما عن أمي الغالية، فلا تكفي كل كلمات وأدبيات الدنيا أن تعبر عن صمودها وثباتها ومعاناتها وألمها على فراق ولدها، فهي كانت ولازالت إلى يومنا هذا ثابتة كثبات الجبال الرواسي، مجاهدةً محتسبةً رغم مرور (٢٥) عاماً على اعتقالي، جابهت شتى أصناف المشاعر وأكثرها قسوةً وألماً، حيث تنقلتْ ولازالت من سجن لآخر من أقصى شمال فلسطين حتى أقصى جنوبها، صيفاً حاراً وشتاءاً قارساً، ليلاً ونهاراً لساعات طويلة من أجل رؤية ولدها خلف أسوار السجون الظالم أهلُها لمدة ٤٥ دقيقة مرة في كل شهر، إلى جانب مشاركتها في كل مسيرات وفعاليات الأسرى في مدينة القدس، والاعتصامات مع أهالي الأسرى خارج بوابات السجون في بعض الأحيان، بسبب منعهم من زيارة أبنائهم وغيره، وهذا غيض من فيض، مما قامت به ولا زالت تقوم به أمي الغالية... ولعلي أُعبّر هنا عن بعض ما عاناه والداي خلال مسيرة أسري الطويلة، والتي لازالت مستمرة إلى يومنا هذا، والله وحده يعلم كم ستستمر، مع يقيني المسبق أن لا وصف يعبر عن حجم معاناتهما، ولا بكاء يشفي غليل حزنهما، ولا ألم فراق يضاهي ألمهما، ولكن البَّر لهما يُحتّم عليّ أن أكون وفياً لطهر قلبيهما وقوة صبريهما، لأروي لكل العالم قصة معاناة والدَيْن، جرّعهما الاحتلال مرارة فراق فلذة الكبد، ظلماً وقهراً وجوراً. فجزاكما الله يا والديّ الحنونين بصبركما وثباتكما خير الجزاء، وجعل جزاءكما الفردوس الأعلى في الجنة إن شاء الله.

مرحلة ما قبل الاعتقال

في العام (١٩٩٥) ومع تفاقم الأحداث، وسوء الأحوال المعيشية، عمل أبي (رحمه الله) كبائع خضار متجول في السيارة، حيث كان يتنقل من حي إلى آخر، داخل مدينة القدس؛ لبيع الخُضار، وكان يحرص دائماً على أن أكون معه كي أساعده في عمله، حيث كنت في تلك الفترة طالباً في المرحلة الثانوية.

كان والدي (رحمه الله) ينطلق صباحاً للبيع بالسيارة، وكنت أعرف خط سيره، فما أن ينتهي دوامي الدراسي حتى أذهب للبيت مسرعاً وأغيّر ملابسي، ثم أذهب مشياً على الأقدام مسافة (٥-١٠) كيلو يومياً حتى ألتحق بوالدي (رحمه الله) من أجل مساعدته في العمل، أما وقت العطلة السنوية في الدراسة، فقد كنت أنطلق معه يومياً من الصباح حتى المساء.

وقد كان والدي (رحمه الله) يعتمد عليّ كثيراً على الصعيد الاجتماعي والعائلي، وفي قضاء حوائجه، لذلك كنت له عوناً في كثير مما يطلبه مني، وكذلك والدتي الغالية، مما كانت تطلبه من احتياجات، وقد كنت أحرص دائماً على برّهما ورضاهما عنيّ، كيف لا ورسولنا الكريم «عليه أفضل الصلاة والسلام» يقول: إن رضا الوالدين من رضا الله "عزّ وجل»، وقد شعرت بذلك عندما قال لي والدي (رحمه الله) بعد اعتقالي: " لقد كسرت ظهري" أما والدتي فقالت لي: هناك أمور كنت تقوم بها وتقضيها لي، واليوم أفتقدها كثيراً.

ومع حلول العام (١٩٩٢) حيث بلغت من العمر (١٨ عاماً) أنهيت الدراسة، وخرجت لسوق العمل، لأعمل كسائق شاحنة في أحد مصانع البلاستيك والميلامين الفلسطينية، حيث كنت أعمل في قسم الميلامين الذي ينتج الأدوات المنزلية، وكنت أقوم بتوزيع هذه المنتجات على جميع مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة والأراضي المحتلة عام (١٩٤٨)، في تلك الفترة توقف والدي (رحمه الله) عن بيع الخضار في السيارة، وقام بفتح بسطة لبيع الخضار في الحي قريباً من المنزل، لأنه لم يستطع الاستمرار وحده، ورغم هذا لم أتركه بمفرده، فقد كنت أُعرّج في بعض الأحيان بعد الانتهاء من عملي وأنا عائدٌ من مدن الضفة الغربية، على محالّ بيع الخضار بالجُملة (الحسبة) وأقوم بشراء بعض

الأصناف من الخضار لوالدي (رحمه الله)، حيث إن الخضار في الضفة الغربية أرخص بكثير منها في القدس، وكان والدي (رحمه الله) يُسَرُّ لذلك كثيراً، وفي بعض الأحيان عندما كنت أعلم أن والدي (رحمه الله) قد ذهب إلى مدينة رام الله لشراء ما يلزم من أصناف الخضار، فأنتهز الفرصة وأذهب خلال خط سيري في رام الله، كي أساعده في نقل الخضار بالشاحنة، ولا أدّخر جهداً أو فرصة إلا وأسعى لعونه ونيل رضاه.

وقد كان لعملي كسائق شاحنة الأثر الكبير عليّ، فقد أضاف لي العديد من الأمور التي ساعدت في صقل شخصيتي على عدة أصعدة، فإضافة لكسب الرزق، كنت شديد الحرص على عكس الصورة والأخلاق الإسلامية من خلال تعاملي من جانب، واستغلال ذلك كسياحة في ربوع فلسطين من جاب آخر، فقبل عملي هذا لم أكن أعرف عن حقيقة وجمال وأهمية موقع فلسطين الجغرافي إلا القليل القليل ومن خلال الكتب فقط، وهكذا قدّر الله «عز وجل» لي أن أجول فلسطين لمدة سنة طولاً وعرضاً، وتعرفت وشاهدت بلادي وأرضي فلسطين عَياناً، وكدّت أموت خنقاً عندما كنت أرى جمال مدن أراضي عام (١٩٤٨) المحتلة، والتي هي من أجمل ما أعطى الله "جلّ جلاله» من حيث المساحة والجمال والموقع الاستراتيجي، فأدركت عمق الكارثة والطامّة الكبرى مما أجرمه الاحتلال الإسرائيلي من سرقة واحتلال لبلدي وأرضي فلسطين، هذا عدا عمّا رأيته وشاهدته من ممارسات وقمع الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة من خلال تنقلي فيها، فزاد لدي حب الوطن وحب فلسطين أكثر وأكثر، وزادني ذلك الحب تصميماً على مواجهة هذا المحتل الغاصب.

وقد فخر والدي (رحمه الله) عند سماعه من أصحاب عملي عن صدقي وأمانتي في العمل، فقد كنت أحرص كل الحرص على أداء عملي بأن أعكس أخلاق العمل الإسلامية الحقّة، والقدوة وحسن الالتزام سواء مع أصحاب العمل أو مع التجار، الأمر الذي ترك الانطباع الجيد والجميل لدى الطرفين وهذا أسعدني جداً. ومع حرصي على بر الوالدين- لم أنسَ أيضاً بر دعوتي ووطني، ففي بداية التسعينيات انضممت إلى صفوف جماعة الإخوان المسلمين التي كان لها الدور الأكبر بعد فضل الله عز وجل في غرس حب فلسطين عامة والقدس والأقصى خاصة في نفسي، حيث أخذت على عاتقي عبء التضحية والدفاع والذود عنهما من دنس الاحتلال، مهما كان الثمن غالياً في المال والنفس.

وبعد سنتين من ذلك- قدر الله «سبحانه» لي وشرّفني أن انضممت إلى صفوف كتائب الشهيد عز الدين القسام التي كانت آنذاك في باكورة تشكيلها، وكان ذلك عن طريق الإخوة الأفاضل في قطاع غزة تحت المسؤولية المباشرة للأخ القائد محمد الضيف «أبو خالد»، ومن تلك اللحظة تم إعدادي في الفترة ما بين عام (١٩٩٤) حتى عام (١٩٩٦) والتي مثّلت شرارة العمل الجهادي لدي، وقد أخذنا على عاتقنا أنا ومجموعة من الإخوة المجاهدين: حسن سلامة وأيمن الرازم وأخوة آخرون، عمليات الثأر المقدس، رداً على استشهاد الأخ القائد يحيى عياش، وكان ذلك من خلال ثلاث عمليات استشهادية كان لها وقعٌ مزلزل على الاحتلال الإسرائيلي الغاصب، حيث بدأنا الرد في (١٩٩٦/٢/٢٥) واستمر حتى (١٩٩٦/٣/٣)، حتى تم اعتقالنا في (١٩٩٦/٣/٢٧)، فالحمد لله الذي شرّفني وأكرمني وأعزّني بأن جعلني من المجاهدين والمرابطين في القدس والأقصى، ومن المدافعين عن ثغرة من ثغر الإسلام.

بعد ٢٥ يوماً من تنفيذ عمليات الثأر المقدس وبتاريخ (١٩٩٦/٣/٢٧) دقّت ساعة القدر مؤذنةً بحدث جديد سينعطف بحياة عائلة بأكملها نحو اتجاه لم يكونوا يتصورون بلوغه، فقد تفاجأت بقوات إسرائيلية كبيرة قد أعدّت لي كميناً لاعتقالي في محل إقامتي مع عائلتي في حي رأس العامود، فتم اعتقالي واقتيادي إلى مركز تحقيق المسكوبية في القدس، حينها ومنذ تلك اللحظة بدأت المرحلة الجديدة من حياة عائلتي وبالأخص والديّ، مرحلة مليئة بالألم والمعاناة لي ولوالديّ وللعائلة، تحمل فيها والدي (رحمه الله) ألم وسطوة الجلّاد ووجع الفراق.

وبعد مُضيّ (٩ سنوات) من اعتقالي ومن رحلة عذابات ومعاناة والديّ، انتقل والدي (رحمه الله) إلى جوار ربه وتحديداً بتاريخ (٢٠٠٥/٤/١٩)، حيث توفاه الله عز وجل بعد إصابته بجلطة أسفرت عن شلل نصفي أقعدته مدة خمسة أشهر، حتى رحل عن هذه الدنيا صابراً محتسباً، ومتألماً على فراق ولده، الذي كان يأمل في يوم ما لقاءه وعناقه خارج هذه السجون الظالمة، لكن صلف وحقد الاحتلال حال دون ذلك.

وبعد رحيل والدي (رحمه الله) مضت والدتي الغالية بهذه الرحلة وحيدة، فاشتدّ الألم أكثر وبلغت المعاناة التي كانت تتقاسمها مع والدي ذروتها، وهي تخوض منفردةً ملحمة الصبر.

فماذا عليّ أن أقول أو أعبّر عن مثل هذين الوالدين العظيمين؟ فقمة الحب وأعلى درجات مشاعر الصدق والوفاء، وأسمى معاني التضحية والتفاني والصبر لا تكون مجتمعةً، إلا عند أب وأم تجاه فطرة حب فلذة كبدهما، فلهذا لا قدرة لإعطاء الحال قدره إلا أن أدعو لهما بأن يضاعف الله عز وجل لهما، ولكل الآباء والأمهات الصابرين أجرهم، وأن يُحسن مدخلهم، فلا أملك إلا برّهما وحسن الدعاء لهما ما حييت.

مرحلة الاعتقال

لأول مرة تعرفت الأغلال على معصميّ، وحُجِبَت الرؤية عن عينيّ، فأدركت حينها بأنني مُقبل على حياة أخرى، وأن مدة أسري لن تكون أقل من خمسة وأربعين مؤبداً، ورغم ذلك لم يكن تفكيري منشغلاً بفترة اعتقالي، ولكن جلّ تفكيري كان متجهاً صوب ما سيصيب والديّ حال سماعهما خبر اعتقالي: هل سيُصدّقان الأمر؟ ماذا سيفعلان؟ وماذا سيقولان؟ وماذا.. وماذا.. إلخ، أسئلة كثيرة كانت تراودني، أعدّت وعيي إلى الواقع مُسلماً أمري إلى الله عز وجل، فلا معين ولا نصير غيرُه.

لم تكن المسافة بين مكان اعتقالي ومركز(المسكوبية) في القدس بعيدة عن بيتي، رغم هذا شعرت أن الوقت الذي استغرقه جيب الاحتلال خلال اعتقالي لإيصالي إلى مركز تحقيق المسكوبية وقت طويل، وقد أيقنت أنها رحمة من الله عز وجل، ليُعينني على استيعاب صدمة الاعتقال، وعلى تهيئة نفسي وعقلي وجوارحي للمرحلة التالية، ألا وهي مرحلة التحقيق، والتي كنت أعلم يقيناً أنها لن تكون مرحلة سهلة، وقد تكون من أصعب ما مررت به في حياتي.

فعلاً، وبمجرد أن وطأت قدماي أعتاب الزنزانة رقم (٣٥) حتى تراءت لي سلسلة صور من مراحل حياتي كلها مع عائلتي ومع المسجد الأقصى والصلاة والرباط فيه، فتفطّر قلبي حزناً؛ لعلمه أنه سيغيب قسراً عن أهله وأحبابه، وعن روحي ووجداني والمسجد الأقصى وحواري البلدة القديمة.

ومن إحدى هذه الصور التي أدمت قلبي وروحي فور أن وطِئت قدماي هذه الزنزانة هو موقف تعرّضت له قبل سنة من اعتقالي، عندما كنت أُطالع في أحد الكتب: أنه سيأتي يوم على المسلم ينظر إلى المسجد الأقصى، ويتمنى دخوله لكنه لا يستطيع، فقلت حينها: الحمد لله، أنا لست من هؤلاء، لأني أقطن بجوار المسجد الأقصى، وأزوره كل يوم، لقد لاح في خاطري هذا النص وأجهشت ببكاء مرير، لم يكن بكاء حسرة أو ضعف أو تراجع أو ندم، بل بكاء فراق وشوق وحنين لبرِّ والديّ الغاليين، وشوقاً وحنيناً لرمز عقيدتنا ولمسرى نبينا محمد (محمد صلى الله عليه وسلم) المسجد الأقصى، فأخذت أخاطب نفسي وحيداً في تلك الزنزانة: يا الله أنا الذي كنت أعدُّ نفسي ممن لن

ينظروا إلى المسجد الأقصى ذات يوم وهم يتمنون دخوله، لكن بعد اعتقالي أصبحت واحداً منهم، فرددت على نفسي قائلاً: إن الحمد لله رب العالمين على السراء والضراء، وأني أحتسب أمري لوجهك يا الله، لأن فراقي لوالديّ وفراقي للمسجد الأقصى هو من أجلك يا الله، هو من أجل الدفاع والذود عن أرض الأنبياء، ومهد الرسالات، ومسرى رسولنا الحبيب (عليه السلام)، وعن أولى القبلتين، وثاني المسجدين وثالث الحرمين، فأنفسنا نقدمها رخيصة لك يا ربنا، فطوبى لك يا أيها الأقصى الحبيب، وطوبى لكم يا والديّ الغاليين، وطوبى لك يا فلسطين الحبيبة، وطوبى لك يا شعبي الأبيّ الصامد... ولازال هذا الحوار يصول ويجول في قلبي ووجداني منذ (٢٥) عاماً، خاصة كلما نظرت إلى التلفاز وشاهدت المسجد الأقصى أو شاهدت صورة له في كتاب أو حتى في صحيفة، ومهما خطّ قلمي عن هذا الموقف، فلن يستطيع التعبير عمّا يدور في قلبي ووجداني من ألم الفراق والشوق والحنين لوالديّ وللمسجد الأقصى.

منذ لحظة اعتقالي واقتيادي إلى مركز التحقيق (المسكوبية) الذي مكثتُ فيه أربعة أشهر رهن التحقيق، لم ألتقِ فيها بوالديّ، إلا بعد مرور شهرين، ولمدة عشر دقائق فقط، رأيت من خلالها قسمات وتعابير وجهيهما، ومن عيونهما الثاقبة ولسانيهما اللذين يلهجان بالدعاء، وتراءت لي الأسئلة الكثيرة التي كانت على لسانيهما: كيف؟ وما الذي حدث؟ وهل ما سمعناه ووصلنا كله صحيح؟

وهل عذبوك.. وهل.. وهل.. إلخ، كانا ينتظران مني الإجابة بالنفي، وأن ذلك مجرد حلم، فكانت إجابتي الصادمة والصاعقة لهما، أن بُعدي عنهما، وفراقي لهما سيكون لأجلٍ طويلٍ وغير مُسمّى، لأجلٍ لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأصابهما الحُزن والألم، لكن سرعان ما انطلق لساناهما بالدعاء لي بالثبات والصبر، وأودعاني في رعاية الله ورحمته وحفظه.

وبعد أن انتهت مرحلة التحقيق معي التي كانت صعبة وشاقة وطويلة، اكتسبت معاناة والديّ شكلاً آخرَ، حيث تم نقلي إلى سجن عسقلان المركزي بتاريخ (١٩٩٦/٧/٢٧)، والذي يبعد مسافة ساعة ونصف الساعة عن مدينة القدس، وهو من أقدم السجون الإسرائيلية، فقد شُيّد إبان الانتداب البريطاني على فلسطين، يُطل على البحر الأبيض المتوسط، فإضافة إلى بنائه القديم، فهو ذو رطوبة عالية في الصيف، لا تستطيع العيش

فيه من شدة رطوبته القاتلة، هذا عدا عن بنائه القديم غير المؤهل للعيش الآدمي، فبعد أسبوع من وصولي إلى سجن عسقلان كانت زيارة أهلي الأولى لي، فعندما تم إبلاغي أن لي زيارةً، وعليّ أن أُجهز نفسي خلال دقائق، لم أتوقع أن تكون تلك الزيارة بتلك السرعة المفاجِئة، حينها دار حوار بين عقلي وقلبي الذي يفيض بالشوق والحنين لعائلتي بعد هذه الفترة الطويلة من التحقيق، وتلهفي الكبير لرؤية والديّ وعائلتي، للاطمئنان عنهم ومعرفة أخبارهم، أما عقلي فدارت فيه سلسلة من الأسئلة التي لا إجابة عنها لديّ، إلا بعد أن تتم الزيارة، فأخذت أتساءل: كيف وضع الأهل؟ كيف ستكون ردة فعلهم؟ ما طبيعة الأسئلة التي سيسألونني إياها؟ كيف سأرد على أسئلتهم دون أن أصْدُقَهم القول؟ من الذي جاء لزيارتي؟ وهل اقتحم الإحتلال منزلنا للتحقيق مع والديّ وإخوتي؟ وغيرها من الأسئلة الكثيرة التي أربكتني لدرجة أن أحد الإخوة الأسرى والذي كان معي في الغرفة لاحظ تخبطي هذا، فسألني: ما بك مرتبك؟ فرددت عليه: إنني لا أريد أن أخرج للزيارة، فكل الأمور مختلطة عندي، فلا أعرف ماذا سأقول لهم، وكيف سأجيب، وكيف ستكون الزيارة، ولا أعرف وضع والديّ وعائلتي، وما الذي حصل معهم خلال هذه الفترة الصعبة؟

وفي هذه اللحظة جاء السجان منادياً اسمي ليأخذني إلى غرفة الزيارة، ما زاد في إرباكي أكثر، فإذا بأخي الأسير يدفعني بطريقة ذكية إلى خارج الغرفة ليأخذني السجانون إلى الزيارة واضعاً إيايّ تحت الأمر الواقع، وكأني أُسَاق إلى عالم مجهول لا أعرف عنه شيئاً، وما أن دخلت إلى غرفة الزيارة، فإذا بها تكتظ بأهالي الأسرى، فنظرت نحو شبك من حديد ذي مربعات صغيرة يفصل بين الأهالي والأسرى، وراحت عيناي تنظر يميناً ويساراً بحثاً عن والديّ، فإذا بصوت عالٍ يصرخ باسمي، وما أن التفتُّ باتجاه الصوت، حتى شاهدت يداً ملوحةً لي معلنةً أننا هنا، فلوّحت بيدي معلناً رؤيتهم فشاهدت أبي (رحمه الله) وذهبت باتجاهه، وفي هذه اللحظة تصبب وجهي عرقاً، وازددت ارتباكاً فوق ارتباكي السابق، وما أن اقتربت حتى رأيت وجه أُمي مبتسماً، ما خفف قليلاً من ارتباكي وخوفي، ورأيت والدي (رحمه الله) وأخي الصغير طارق، فأخذت أُقبّل أصابع والديّ من خلال مربعات شبك الزيارة، وما أن جلست على كرسي الزيارة حتى انهمرت عليّ عشرات الأسئلة والاستفسارات من والديّ، عن كيفية اعتقالي وعمّا حدث؟ كيف عذّبوك؟ وهل كل ما هو مكتوب في لائحة الاتهام المقدمة من المحكمة الإسرائيلية

صحيح؟ وكيف صحتك، وكيف... وماذا... وهل... إلخ، حينها انخفض منسوب الارتباك والقلق اللذين كانا قد كبّلا عقلي وتفكيري، فأجبتهم عن كل أسئلتهم بكل ثبات وشموخ وعزّة، حتى هدّأتُ من روعهم وقلقهم وخوفهم عليّ، وبعد أن سمعوا مني ما سمعوا، شاهدت في وجوههم العزّة والفخار، وقالوا لي: لقد رفعت رأسنا عالياً، وأخذوا يدعون لي بالصبر والثبات، حتى يأذن الله لي ولأخوتي الأسرى بالفرَج.

هذا بالنسبة لوالديّ، أما بالنسبة لأخي الصغير طارق، فلم يتعرف عليّ في بداية الزيارة، وكأني شخص غريب شاهده لأول مرة، فأخذت أتحدث معه دونما جدوى، فآلمني هذا الأمر، فأخذ والداي يشرحان له الأمر طوال الزيارة، لكنه لم يستوعب ما الذي يحدث، حتى قرع جرس الزيارة معلناً انتهاءها، فأخذت أُقبّل أصابع الديّ من خلال الشبك الفاصل بيننا، مودعاً لهم، فإذا بأخي طارق يسترجع شريط ذاكرته الصغيرة، وينادي ويصرخ باسمي، فسررت لذلك كثيراً، وهكذا انتهت أسرع (٤٥ دقيقة) في حياتي هي مدة الزيارة، لا أعرف كيف بدأت ولا كيف انتهت، فخرجت وإخوتي الأسرى في غرفة الزيارة عائداً إلى غرفتي رقم (٣١) في قسم ١٢، وعندما دخلت الغرفة فإذا بأخي الأسير الذي دار بيني وبينه الحوار قبل الزيارة، يسألني كيف كانت زيارتك لوالديك؟ فأجبته بأنها كانت مليئة بمشاعر القلق وألم الفراق والشوق والحنين من كلا الطرفين، وأن والديّ رغم كل تلك المشاعر أودعاني برعاية الله وحفظه واحتسباني عند "عز وجل"، وفي الوقت نفسه افتخرا بي، ورفعا رأسيهما عالياً، ما أزال قلقي وخوفي عليهما، فقال لي: أعان الله أمهاتنا وآباءنا وجزاهما عنا خير الجزاء، على معاناتهما مع أبنائهما الأسرى لسنوات طويلة لا يعلم نهايتها إلا الله «عز وجل».

عدتُّ من الزيارة إلى مهجعي في الأسر وقد تبدّل قلقي عجباً مما رأيت من والديّ صبراً واحتساباً، وبتُّ أتساءل: من ذا الذي ألهمكما الصبر؟ ومن وضع فيكما صدق القول والمشاعر؟ إنه الله "جلّ جلاله»، هذه هي حال الأسير وأهله، يمزقهم البُعد ويرهقهم الانتظار، ولا يبقى لهم سوى الصبر والدعاء.

أُولى مراحل التنقلات ما بين السجون، ومحطات المعاناة فيها

إن معاناة الأسير داخل السجون الإسرائيلية تتخذ أشكالاً وأنواعاً متعددة، منها مراحل تنقّل الأسير من سجن لآخر، بدءاً من شمال فلسطين حتى جنوبها، بهدف إرهاق وتعذيب الأسير وأهله، وهذه سياسة احتلالية لازالت مستمرة، ما بقيت هذه الجدران والباستيلات.

وقد كانت أولى مراحل تنقّلي بين السجون في بداية عام ١٩٩٧، حيث تم نقلي من سجن عسقلان المركزي إلى سجن نفحة الصحراوي والذي يبعد عنه مدة ساعة ونصف، ويبعد أيضاً مسافة ثلاث ساعات عن مدينة القدس، هذا السجن شُيّد في زمن الانتداب البريطاني، وفي بداية سنوات التسعينيات تمت إضافة ثلاثة أقسام جديدة له، وبعدها تمت إضافة قسمين آخرين، هذا السجن ملاصق أيضاً لسجن ريمون، ويفصل بينهما ممر طويل يوصل بين السجنين، موقعه في وسط صحراء النقب الحارقة صيفاً، وبردها القارس شتاءً.

في هذا السجن وتحديداً بتاريخ (١١-١١-١٩٩٧) شنّت قوات مصلحة السجون هجمة شرسة على الأسرى، شملت كل أقسام السجن، تم فيها رش الغاز المسيل للدموع على جميع الأسرى، واستمرت هذه المواجهات عدة أيام احتجاجاً على ممارسة السجان اللاإنسانية ضد الأسرى، أصيب خلالها عدد من الأسرى وكذلك عدد من السجانين، بناءً على ذلك قام وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي حينها بفرض عقاب جماعي على جميع الأسرى، تمثّل بمنع زيارات الأهل لمدة شهر، هذا عدا العقوبات المختلفة داخل السجن، وما أن وصل هذا الخبر إلى أهالي الأسرى والمؤسسات التي تُعنَى بحقوق الأسرى في القدس تحديداً، حتى خرج الأهالي للاعتصام وللاحتجاج على إجراءات وتصرفات مصلحة السجون ضد أبنائهم الأسرى أمام مقر الصليب الأحمر، وكذلك أمام سجن نفحة، وكان والديّ من ضمن المحتجين والمعتصمين، وكانت هذه المرة الأولى لوالديّ من حيث المشاركة في فعالية، حيث كانا قلقين عليّ جداً، لدرجة أنهما أرسلا محامياً لزيارتي من أجل الاطمئنان عليّ، وذلك بعد أن سمحت إدارة السجن بزيارة المحاميين بعد خمسة عشر يوماً من إغلاق السجن.

أما الحدث الثاني الذي أقلق والديّ جداً وأهالي الأسرى ممن لهم أبناء في سجن

نفحة، فكان بتاريخ (١٩٩٩/٣/٣) عندما اقتحمت قوات مصلحة السجون السجنَ مُدجّجة بالهراوات والغاز المسيل للدموع، فقامت باقتحام قسم ١٢ الذي كنت أقبع فيه، وشنت الهجوم على الأسرى فيه بصورة همجية، أُصيب على أثرها اثنان من الأسرى، وعدد من السجانين المعتدين، واستمرت المواجهات من الصباح حتى العصر، وبناءً على ذلك تم فرض عدد من العقوبات على الأسرى من ضمنها حرمان الأسرى من زيارات الأهل لمدة شهرين. وما أن سمع الأهالي بهذا الخبر حتى انتابهم القلق والخوف على مصير أبنائهم، ما حدا بهم للخروج للاحتجاج والاعتصام أمام مقر الصليب الأحمر في القدس وباقي المدن الأخرى، وكان والداي أيضاً من ضمن هؤلاء الأهالي المشاركين في تلك الاعتصامات والاحتجاجات لمساندة أبنائهم الأسرى، وهكذا تدرّجت معاناة والديّ وأهالي الأسرى بما يستعصي على الوصف.

بصيص أمل في بداية النفق

قَدَرُ الإنسان الفلسطيني على هذه البقعة المقدسة الطيبة أن يعيش دائماً على الأمل، بأن يأتي ذلك اليوم الذي يتم فيه تحرير فلسطين كلها من أيدي الاحتلال الذي نهب أرضنا واحتلها وقسّمها ونهب خيراتها، والأسير الفلسطيني كذلك يعيش على الأمل دائماً أن يأتي يوم ويتحرر فيه من الأغلال والأصفاد، ويتحرر من هذه السجون ومن مقابر الأحياء، مهما طالت السنون، خاصة أصحاب الأحكام المؤبدة والعالية، مثلما حصل في صفقة تبادل الأسرى في عام (١٩٨٥).

ففي عام (٢٠٠٠) وقبل بدء انطلاق شرارة انتفاضة الأقصى المباركة بعدة أشهر، كنت حينها أقبع في سجن نفحة الصحراوي جنوب فلسطين، وكان قد مضى على اعتقالي أربع سنوات، وكنت في قسم ١٢ غرفة (٦٤)، والوقت ظهراً، فإذا بالأسرى في هذا القسم تصدح حناجرهم بالتكبير، وعمّت حالة من الفرح والسرور، فتعجبت وسألتهم عن سبب تكبيرهم فأجابوا: «حزب الله» نفذ عملية أسر جنود إسرائيليين في جنوب لبنان.

لقد كان هذا الإعلان بمثابة بصيص أمل في بداية هذا النفق المُعتم لكل الأسرى عامة، وأحكام المؤبد والأحكام العالية خاصة، علّ هذا الحدث يتكلل بالإفراج عن عدد من هذه الشريحة من الأسرى، خاصة وأنه قبل عام من هذا التاريخ في عام (١٩٩٩) كان الإفراج عن آخر دفعة من أسرى منظمة التحرير ضمن تبعات توقيع اتفاقية أوسلو عام (١٩٩٣) ما بين السلطة الفلسطينية وحكومة الاحتلال الإسرائيلي، والتي أدت إلى الإفراج عن آلاف الأسرى بدءاً من عام(١٩٩٤) حتى عام (١٩٩٩)، وما تبقى من أسرى في السجون الإسرائيلية لم يتجاوز عددهم (١٠٠٠) أسير، حيث تم الإفراج عن أسرى منظمة التحرير فقط، أما أسرى الحركة الإسلامية ممثلين بحركة حماس وحركة الجهاد الإسلامي، فلم يتم الإفراج عن أيّ منهم.

وفي أول زيارة لي من قبل الأهل بعد الإعلان عن خبر أسر الجنود الإسرائيليين، كانت الفرحة والسعادة باديةً على وجه والديّ، وقالا لي: إن شاء الله سيكون لك وللأسرى نصيب من تبادل الأسرى المقبل، لكن كيف ومتى ستعقد الصفقة، فهذا في علم الله، وما هي إلا أشهر معدودات حتى انطلقت شرارة انتفاضة الأقصى المباركة.

وفي شهر (٢٠٠٤/٢) تم الإعلان عبر وسائل الإعلام أنه تم التوصل إلى صفقة تبادل للأسرى بين حزب الله من جانب، وحكومة الاحتلال الإسرائيلي من جانب آخر، فدبّ الفرح والسرور في قلوب الأسرى، علّ هذه الصفقة تشمل عدداً منهم، لاسيما أن حزب الله كان قد أعلن مراراً وتكراراً أن هذه الصفقة للتبادل ستشمل أسرى فلسطينيين، لكن ما حصل على أرض الواقع أنه تم الإفراج عن عدة مئات من الأسرى الفلسطينيين من ذوي الأحكام الخفيفة ممن تبقى لهم عدة شهور أو على وشك انتهاء محكومياتهم، ما خفضّ من وتيرة الفرحة والسعادة لدى الأسرى، وتحديداً من ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية، الذين لم يطلق سراح أي أحد منهم في التبادل ذاك، وأيضاً ما عكس نوعاً من الامتعاض عند أهالي الأسرى الذين كانت توقعاتهم بالإفراج عن عدد من أبنائهم، وهذا ما رأيته على وجهَيْ والديّ، في أول زيارة بعد تنفيذ هذا التبادل.

وبعد ستة شهور من هذه الصفقة كانت شرارة البدء بالإضراب المفتوح عن الطعام الذي شمل جميع السجون الإسرائيلية؛ للمطالبة بحقوقنا الإنسانية المشروعة التي يحرمنا منها السجان والاحتلال الغاصب.

تضامن إنساني من نوع آخر

إن مسيرة معاناة والديّ في التسع سنوات الأولى من اعتقالي حتى وفاة والدي (رحمه الله) كانت مليئة بالأحداث والمواقف الإنسانية، فوالدي (رحمه الله) ومن باب مساندة ودعم قضية الأسرى أمضى جلّ وقته متطوعاً في لجنة أهالي أسرى القدس، التي كانت في حينها حديثة النشأة، ومهمتها متابعة شؤون الأسرى المقدسيين المادية والمعنوية والقانونية والإنسانية وحتى الاجتماعية، فكان (رحمه الله) متطوعاً ليل نهار من أجل خدمة ودعم هذه القضية الوطنية، فلم يدّخر هو وبقية أعضاء هذه اللجنة جهداً في خدمة ومساندة ودعم الأسرى وعائلاتهم، رغم مضايقات قوات الاحتلال لهم في مرات عديدة بصدّهم ومنعهم من أداء هذا الواجب الإنساني والوطني إلا أنهم لم يكترثوا لهم، بل لم يزدهم ذلك إلا ثباتاً وصبراً وتحدياً للاحتلال، ما أدى في بعض الأحيان إلى اعتقال بعضهم، وتهديد البعض الآخر كي يكفوا عن القيام بمساعدة الأسرى.

ولا زالت هذه اللجنة مستمرة في عملها حتى يومنا هذا، تُقدم الدعم والمساندة، والمتابعة لكل شؤون الأسرى المقدسيين، متطوعين من أوقاتهم ولقمة عيشهم، فعكس ذلك نوعاً من الطمأنينة اتجاه عائلاتنا، وأن هناك من يساندنا ويدعمنا ويقدم لنا كل ما يستطيع، بل ويلبي قدر المستطاع من احتياجات الأسرى القانونية والطبية، وإدخال الملابس، وهذه اللجنة تُعَدُّ الناطق الإعلامي باسمنا داخل هذه المدينة المقدسة، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وكما كان لوالدي (رحمه الله) دور في خدمة ومساندة قضية الأسرى من خلال عمله متطوعاً في لجنة أهالي الأسرى المقدسيين، فإن والدتي الغالية لم يقل دورها أيضاً كباقي أمهات الأسرى المقدسيين في عملية دعم ومساندة أبنائهم الأسرى داخل السجون الإسرائيلية، عن طريق مشاركتهن بالاعتصامات الدورية أمام مقر الصليب الأحمر في مدينة القدس، وفي أماكن مختلفة أيضاً، حسب ما تقتضيه الحاجة، وأذكر على سبيل المثال ما حصل لها بتاريخ (٢٠٠٣/٧/٣١) عندما كنت في سجن عسقلان المركزي، حيث تعرضنا في هذا التاريخ إلى هجمة (قمعة) قاسية من قبل إدارة مصلحة السجون والسجانين، من خلال هجوم واعتداء وحشي ضد الأسرى كانت من الأصعب حينها، وقد تم رش الغاز المسيل للدموع على كل غرف وأقسام السجن، ووقعت خلالها مواجهة

مباشرة بين الأسرى والسجان، أدت إلى إصابة العديد من الأسرى بإصابات بالغة، تم نقل بعضهم على إثرها إلى المستشفيات، هذا عدا الاختناق القاتل جراء استنشاق هذا الغاز السام، وقد استمرت هذه المواجهات من الساعة الواحدة ظهراً حتى التاسعة مساءً، لدرجة أنهم إثر ذلك قاموا بمعاقبة كل الأسرى في السجن، من كانتينا وأدوات كهربائية، لدرجة أنهم صادروا المراوح في ظل أحرّ صيف في عسقلان المعروفة بشدة حرارتها ورطوبتها؛ للانتقام من الأسرى بطريقة وحشية وغير إنسانية، عانينا فيها أشد المعاناة، كما شملت العقوبات حرمان الأسرى من زيارة ذويهم لمدة شهرين، وتحوّل السجن ومحيطه إلى ثكنة عسكرية ومنطقة عسكرية مغلقة.

وما أن وصلت أخبارنا إلى عائلاتنا حتى لبّت النداء، فأعلنت أمهات وذوو الأسرى الاستنفار في مدينة القدس، وبالتنسيق مع لجنة الأسرى المقدسيين، حيث تم في اليوم التالي تجهيز حافلة أقلّت (٥٠) شخصاً من أهالي الأسرى المقدسيين وكانت والدتي الغالية واحدة منهم، فأقلتهم الحافلة من مدينة القدس إلى أعتاب وأبواب سجن عسقلان من أجل الاعتصام والتضامن مع أبنائهم الأسرى، كنتُ حينها أقبع في (قسم ٢ غرفة ٧)، وهذا القسم يطل على الشارع الرئيس وبوابة السجن، والتي تبعد حوالي (٣٠٠م) ونستطيع من خلاله رؤية الحركة هناك، وفي اليوم التالي من المواجهة حين هدأ السجن بعد سيطرة السجانين عليه بطريقة وحشية بمئات السجانين والجنود، وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً، سمعنا جلبة وهتافات وطنية، وما أن نظرنا نحو الجهة التي يأتي الصوت منها، حتى رأينا عدداً لا بأس به من أهالينا، يحملون أعلاماً فلسطينية ويافطات ورايات ترفرف عالياً، فابتهجنا لهذا المنظر الرائع الذي لم نكن نتوقعه بعد تيقننا من أنهم عائلاتنا، ومعهم عدد من المتضامنين، فما كان إلا أن دبّت فينا الروح والحماس من جديد، وأخذتْ أصواتنا تصدح بالتكبير، لنُسمع أهالينا أننا معكم ونشاهدكم، فكانت الهتافات والتكبير من الداخل والخارج قد أربكت السجان الذي لم يتوقع ذلك، فتركت حينها أثراً رائعاً ورسمت لوحة جميلة متكاملة من التضامن والدعم والمساندة، أنستنا ألمنا ومعاناتنا جراء هذه المواجهة التي اندلعت من أجل الدفاع عن حقوقنا داخل السجن.

وفي موقف آخر لوالدتي الغالية، وهو واحد من كثير، وقد يكون من أكثرها صعوبة، كان عندما أعلنت الحركة الأسيرة داخل السجون الإسرائيلية في (٢٠٠٤/٨/١٥) الإضراب

الشامل عن الطعام في كل السجون من أقصى شمال فلسطين حتى أقصى جنوبها، للمطالبة بحقوقنا الإنسانية المسلوبة، على إثر ذلك كانت كل مناطق ومدن الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة تضج بخيم الاعتصام تضامناً مع أبنائهم المضربين، وكانت الأمهات والآباء قد تضامنوا مع أبنائهم لدرجة الإضراب عن الطعام مثلهم، وكانت والدتي الغالية من هؤلاء الأمهات، وهذا أمر مؤلم علينا نحن الأسرى، لأننا نعلم علم اليقين أن عائلاتنا وتحديداً أمهاتنا لن يستطعوا الجلوس مكتوفي الأيدي، ولن يهدأ لهم بال خوفاً وقلقاً على أبنائهم من الإضراب، فرغم خوضنا حرب الأمعاء الخاوية وألمها وشدة معاناتها إلا أن تفكيرنا وعقولنا كانت عند أمهاتنا وعائلاتنا، لأننا نعلم أنهم سيعتصمون وسيُضرِبون، فكنت قلقاً على والدتي من ذلك، كيف لا... فهكذا تكون الأم الفلسطينية شرسة عنيدة ومرابطة تضحي بنفسها من أجل ولدها ومن أجل حمايته ومساندته ودعمه بكل ما أوتيت من قوة، فكان جلّ اهتمامي مُنصبّاً على والدتي الغالية قلقاً عليها من ذلك، لدرجة أني كنت أنسى ألم ومعاناة الإضراب عندما كنت أفكر في أمي، وأسأل نفسي: هل هي مضربة الآن؟ هل حصل لها شيء؟ ماذا ستفعل لو طال الإضراب؟ أسئلة كثيرة كانت تراودني خوفاً عليها وعلى والدي (رحمه الله) وهكذا بقية الأسرى.

وبعد أن أنهينا الإضراب الذي استمر (١٩) يوماً، وفي أول زيارة لوالدتي علمت أن قلقي وخوفي كانا في محليهما، فقد صُدمت عندما رأيت يد والدتي ملفوفة ومعلقة برقبتها، فسألتها: ما الذي حدث؟ فأجابت: أنه في أثناء اعتصامها في خيمة الاعتصام مع أمهات الأسرى، كنّ مضرباتٍ عن الطعام تضامناً مع أبنائهن الأسرى المضربين، وفي أحد أيام الإضراب سقطت أرضاً على يدها، ما سبّب لها أوجاعاً مؤلمة، وعلى أثرها تم نقلها للمستشفى لإجراء الفحوصات اللازمة، فتبين أنه يوجد (شُعْر) في يدها ورضوض في أنحاء جسمها... لقد آلمني هذا كثيراً وخاصة أنها أخذت تسرد لي يوميات خيم الاعتصام وفعالياتها مع أمهات الأسرى، وكيف أنهنّ امتنعن عن الطعام تضامناً مع أبنائهن المضربين عن الطعام، وأن بعض الأمهات تم نقلهنّ إلى المستشفى لتعرضهن لوعكة صحية جراء معاناتهن.

فماذا نقول لهؤلاء الأمهات؟ وماذا أقول أنا لأمي على صبرها وثباتها ومعاناتها طوال هذه المدة، والتي لازالت صابرة محتسبة أمرها وأمر ولدها لله الواحد القهار، ووالله أن

كل كلمات الدنيا وما فيها لم ولن تستطيع أن تُعبّر لها عن مدى شكري وحبي واحترامي، أو حتى أن تَفِيَها حقّها عليّ.

هذه هي الأم الفلسطينية يا سادة العالم... هذه أُم الأسير وأم الشهيد وأم الجريح... لا تبرح ولو هُنيهة عن الذود عن أهلها ووطنها... وذاك هو الأب الفلسطيني يا أحرار الأرض... يدفع ثمن الرباط والثبات وهو صابر محتسب.. لله درّكم يا أهل فلسطين كم أنجبتم أمثالاً يُحتَذى بها .

إرهاصات مرض والدي (رحمه الله) وقرار الزيارة

حينما انطلقت مسيرة معاناة والديّ عند اعتقالي، وتفاقم ألم فراقي لهما عام (١٩٩٦) كان والدي (رحمه الله) يبلغ من العمر (٥٤ عاماً)، وكانت أمي تبلغ من العمر (٤٦ عاماً)، كانت مسيرة معاناة غيّرت من أولويات حياتهم وحياة عائلتي بأكملها، فمن تنغيص الاحتلال عليهم، ومعاناة وعذابات الزيارة في السجون الإسرائيلية المختلفة، متنقلين من سجن لآخر، ومتابعة كل ما يلزم الأسير سواء داخل أو خارجه، والمشاركة بالاعتصامات والفعاليات الداعمة للأسرى، كل ذلك أدّى إلى تغيير شكل ونمط حياتهما عمّا قبل اعتقالي، لتصبح حياة تضحية وصبر وعطاء بكل ما تعني الكلمة، فرغم كل هذه المعاناة والعذاب والألم، ما زادهم ذلك إلا صبراً وثباتاً وتحدياً واحتساب أمرهم وأمري لله تعالى.

كانت مسيرة والديّ على مدار التسع سنوات الأولى من اعتقالي نقلة من عالم الأحياء ومسيرة الحياة شبه الطبيعية في ظل الاحتلال خارج السجون، إلى عالم جديد يطلق عليه عالم مقبرة الأحياء داخل السجون، وعاشوا كل تفاصيل هذا العالم الدخيل على حياتهم، فمثلاً كان والداي يتعاملان مع يوم زيارتي داخل السجون كيوم مقدّس، هذا اليوم مقدّم على كل التزاماتهما ومسيرة حياتهما خارج السجون، ولم يغب والداي طوال مسيرتهما معي في السجون الإسرائيلية عن زيارة واحدة، وإن كان ذلك في يوم صيف حارّ، أو في يوم برد شتاء قارس، ولم يدّخر والداي جُهداً ولا وقتاً ولا حتى تفكيراً، من أجل هذه القضية ونصرتها ومساندتها بكل ثمن.

وخلال هذه المعاناة... وبعد تسع سنوات بدأت أحداث أخرى تحصل في شهر (٢٠٠٤/١١)، كنت حينها في سجن نفحة الصحراوي، حيث كان لي في هذا الشهر زيارة أهل ، فخرجت من غرفتي في طريقي إلى غرفة الزيارة كالعادة ، وجلست على الكرسي وكان يجلس على يساري أحد أفراد قضيتي المجاهد أمين الرازم (أفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار عام٢٠١١ مع باقي إخوتي الأسرى ننتظر دخول الزوار من الأهالي، وعندما بدأوا بالدخول لغرفة الزيارة أخذت كل عائلة تبحث عن مكان جلوس ابنها الأسير، فشاهدت والدتي، فوقفت ملوحاً لها بيدي معلناً لها عن مكاني، فدخلت والدتي ومعها شقيقي الصغير طارق، لكن لم أرَ والدي، فقلت في نفسي لعله تأخر قليلاً لأنه (رحمه

الله) كان يقوم دائماً بمساعدة أهالي الأسرى، ويقوم بتسجيل أسمائهم عند السجان من أجل ترتيب دخولهم لغرفة الزيارة، لكن دخل جميع أهالي الأسرى، وأغلق باب الزيارة، فتفاجأت من ذلك حتى جلستْ والدتي وشقيقي الصغير، فبادرت بسؤالها: أين والدي؟ لماذا لم يأتِ للزيارة؟ هل ثمة خطب ما؟ فصمتت والدتي وعيناها تغرورق بالدموع، ثم أجابتني: يعاني من صُداع قوي، ولم يستطع القدوم للزيارة، فصمتُّ قليلاً غير مقتنع بهذه الإجابة، فأعدت السؤال مرة أخرى: لماذا لم يأت والدي لزيارتي؟ هل حصل خطب ما؟ فأعادت الإجابة نفسها، أنه فقط يعاني من صداع لم يُمكّنه من الزيارة، رغم ذلك لم أقتنع بهذه الإجابة، لأني أعرف مدى قدسيّة الزيارة عند والدي (رحمه الله) وأنه يترك كل شيء مهما كانت أهميته من أجل زيارتي، بناءً على ذلك أيقنت أن هناك خطباً ما، لا تريد والدتي إخباري به الآن، فأخذت أسأل وأطمئن عن باقي إخوتي وأخواتي، وعن أخبارهم.

وفي أثناء ذلك سمعت شقيق رفيقي في الأسر، الذي كان يجلس على يساري، يتحدث مع شقيقي الصغير طارق الذي كان يبلغ من العمر حينها حوالي عشر سنوات، ويقول له: هل أخبرت أخاك أكرم عن والدك، فسمعت الحوار الذي دار بينهما، فارتعد قلبي خوفاً على والدي (رحمه الله)، فنظرت مباشرة لوالدتي التي -على ما يبدو - سمعت الحوار، وقلت لها: الآن أريد أن أعرف ما الذي حصل مع والدي، فصمتتْ قليلاً وتنهّدت، ولما لمست إلحاحي عليها استسلمت وقالت لي: إن والدك قد تعرض لجلطة، وهو الآن تحت العلاج في المستشفى، فوقع الخبر على نفسي كالصاعقة، فانهلتُ عليها بكمٍّ هائل من الأسئلة، ودموعي تسيل بسخاء، كيف ومتى وأين ولماذا... إلخ، وحاولتُ التهدئة من روعي من هول الصدمة مما سمعت، وكررت عليها الأسئلة: هل ما سمعته هو الذي حصل فعلاً؟ أم أن هناك خطباً أكبر من ذلك؟

لكن، ومع كل ذلك، حمدتُّ الله «عز وجل» على السراء والضراء، وأودعته في رعاية الله وحفظه. وكنت أعلم جيداً أن والدتي كباقي أمهات الأسرى اللواتي يتعمدن إخفاء حقيقة الأخبار السيئة عن أبنائهم الأسرى، وذلك من باب ألا يزيدوا حملهم ويضاعفوا همّهم، من هذا الباب يخفون عنهم الحقيقة، وهذا ما يرفضه الأسرى لأنهم في نهاية الأمر سيعرفون الحقيقة.

فرغم أن والدتي أخبرتني أن والدي قد أصيب بجلطة، لكنها لم تقصّ عليّ كامل الحقيقة وتفاصيلها، ثم في نهاية الزيارة (التي لم أعرف كيف مرّت) طلبتُ من والدتي أن توافيني بكل تفاصيل وضع والدي (رحمه الله) في الزيارة المقبلة، وودّعتها وشقيقي الصغير، وعدت إلى غرفتي رقم (٧٧) في قسم ١٣ والقلق يتملكني على والدي (رحمه الله) وفي رأسي ألف سؤال وسؤال بحاجة لإجابات، لكن للأسف لم يكن لدي إجابة، ولم يتبقَ لي سوى الدعاء لله «عز وجل» أن يشفي والدي (رحمه الله) والانتظار القاتل حتى مجيء الزيارة التالية بعد أُسبوعين لأحصل على أجوبة عن كل هذه الأسئلة للاطمئنان على والدي (رحمه الله)، وبعد هذه الزيارة بأيام تم نقلي إلى سجن نيتسان في مدينة الرملة المحتلة في قسم ٣ غرفة (١٦)، وفيه تابعتُ وعايشتُ كل مراحل مرض والدي (رحمه الله).

وفي سجن نيتسان علمتُ من والدتي ومن خلال زيارات الأهل، كل تفاصيل مرض والدي (رحمه الله)، فعلمت أنه تعرض لجلطة حادّة ، وعلى إثرها أصيب بشلل نصفي، وأصبح مُقعَداً على كرسي متحرك، ولصعوبة حالته تحتّم عليه أن يمكث في مستشفى خاص بمثل هذه الحالات، وكان هذا المستشفى هو المستشفى الفرنسي في مدينة القدس، وأخذت حالته تشتد صعوبة، فإضافة إلى إصابته بشلل نصفي، أصيب أيضاً بعدها بالسكري والضغط، وشعرت من خلال الأخبار التي تصلني عن حالته أنها تسوء شيئاً فشيئاً، بناءً على ذلك ولعدم تمكنه من زيارتي بهذه الحالة، قررت أن أزوره أنا بالمستشفى الذي يُعالَج فيه، وكنت أعلم أن مثل هذا القرار بحاجة إلى معركة طويلة مع مصلحة السجون، ليتم السماح لي بالزيارة ضمن إجراءات أمنية شديدة التعقيد، ربما يساعدني في ذلك كوني أحمل الهوية الإسرائيلية الزرقاء، فتحدثتُ مع والدتي بهذه الفكرة، فكان ردها أنه في حال تم السماح لك بزيارته في المستشفى، فسيكون ذلك موقفاً صعباً، ويمكن أن يؤثر على نفسيته وصحته عندما يراك مُكبَّلاً بالأغلال باليدين والقدمين ومع حراسة أمنية مشددة، إضافة لذلك شاورت بعض إخوتي الأسرى بهذا المقترح فكان ردهم مثل رأي والدتي، بناءً على ذلك انتقلت إلى الحل الثاني وهو بأن أقوم بزيارته على شكل زيارة خاصة دون حاجز أو شبك يمنعني من لمسه بشكل مباشر داخل السجن، وعلى الفور قدمت كل الأوراق الطبية الخاصة بوالدي ومرضه (رحمه الله) لإدارة السجن حتى تلقيت الموافقة بعد شهر من ذلك، وقد أخبرت والدتي بذلك حتى تُعدّ والدي لهذه الزيارة.

وخلال انتظاري موعد الزيارة لوالدي (رحمه الله) على أحرّ من الجمر، وأنا جالس مع إخوتي الأسرى السبعة في غرفتي، أخذَت الهواجس تنتابني من كل حدب وصوب، عمّا حدث لوالدي (رحمه الله)، فخاطبت نفسي قائلاً لها: يا هل ترى ما تعرض له والدي (رحمه الله) من جلطة وشلل نصفي هو بسبب حزنه على فراق ولده داخل غياهب السجن؟ أم هو بسبب ممارسات الاحتلال من خلال التضييق على سكان مدينة القدس، ومما يشاهده من هدم للمنازل ومصادرة وسرقة للبيوت والعقارات، ومن اقتحامات يومية للمسجد الأقصى وفرض الضرائب الباهظة لإجبار سكان القدس على تركها ومغادرتها، وغيرها من ممارسات الاحتلال الغاصب في هذه المدينة المقدسة؟ أم... أم... إلخ، وكي أنعتق من تأنيب الضمير ومن هذه الدوامة التي لا نهاية لها، لم يكن أمامي إلا أن أحتسبه عند الله «عز وجل»، وأن أودعه لرحمة الله ورعايته وحفظه، وما قدّر الله له أن يكون سيكون، ولا رادّ لقضائه.

كانت فترة انتظار موعد زيارة والدي الخاصة (رحمه الله) شاقة وأليمة، وكانت فترة انتظار صعبة، وكأنها سنوات طويلة، وكنت أتخيل كيف سأرى والدي (رحمه الله)؟ وماذا سأتحدث معه؟ وكيف ستكون ردة فعله؟ وكيف ستكون ردة فعلي أنا؟ وكيف ستكون ردة فعل والدتي كذلك؟ خاصة وأني لم أزر زيارة خاصة لأحد من والديّ طوال هذه السنوات التسع، وحتى أني لم أسلم عليهم أو أُقبّل أيديهم أو حتى معانقتهم بسبب تلك الحواجز اللعينة التي تفصل بيننا في غرفة الزيارة من شبك وأسلاك حديد وغيرها، ولا أعرف كيف يكون شعور الأسير مع أهله في مثل هذه الزيارات الخاصة؟

فأخذت أبحث بين إخوتي الأسرى عمّن زار مثل هذه الزيارات من قبل؛ لأهيئ نفسي لذلك، فسمعت من بعض الإخوة ممن زاروا زيارات خاصة من قبل، فمنهم من قال لي: إنها ستكون زيارة صعبة، حيث تختلط فيها مشاعر الشوق والحنين، ومشاعر البكاء والخوف، ومنهم من قال لي: إنه لم يتمالك نفسه، وأهله كذلك، من كثرة البكاء طوال الزيارة، ومنهم من قال: إن الوداع بعد انتهاء الزيارة كان أصعب بكثير من اللقاء بهم، ومنهم... ومنهم... إلخ، هذه الإجابات وضعتني في حيرة ووضع أصعب من ذي قبل، فعدْتُ أحدّث نفسي مجدداً: ما هذا الجو الذي وضعت نفسي فيه؟ ألا يكفيني ويكفي والديّ ألمُ الفراق والشوق والحنين وألمُ المعاناة طوال هذه السنوات؟ هل سأزيد من معاناتهم وألمهم أكثر في هذه الزيارة الخاصة لأني سألامسهم وأُقبّل أياديهم وأعانقهم لأول مرة منذ تسع سنوات؟

وماذا سأقول في موقف صعب جداً كهذا الموقف بعد هذا الفراق الطويل واللقاء المباشر؟ هل سأستطيع تمالك نفسي؟ أم ستنهمر شلالات الدموع لشوقي وحنيني ولوعتي عليهم؟

هكذا بقيتُ لأيام أنتظر أن يأتي موعد الزيارة في تخبّط وقلق وترقُّب، لم أعرف فيها طعم النوم جيداً من كثرة التفكير بذاك اليوم المجهول الهوية، الغامض في شكله وأحداثه ونتائجه، فكنت أنتظر مرور هذه الأيام وصولاً ليوم الزيارة بأقصى سرعة، لكن شعرت وكأن هذه الأيام دهر طويل وقد توقفت، فاختلطت لديّ كل المشاعر لدرجة أن التفكير لديّ قد توقف أيضاً، وشعرت بأن رأسي سينفجر من شدة التفكير بذلك اليوم الغامض المجهول. وكان أصعب يوم هو قبل الزيارة بيوم، لم أنم فيه جيداً من خوفي وقلقي من المجهول، ومن شدة شوقي وحنيني لرؤية والديّ بشكل مباشر، وهواجس تأخذني يمنةً ويسرةً، فأجد لساني وقلبي وعقلي ووجداني يلهج بالدعاء أن يثبتني الله «عز وجل» في هذا الوقت العصيب، وأن يعينني على اجتيازه على أكمل وجه، وبقيت على تلك الحال حتى غفت عيناي سويعات قليلة، حتى سمعت صوت الأذان مؤذناً لصلاة الفجر، صلّيت وإخوتي داخل الغرفة جماعة، وبعد الانتهاء من الصلاة لم أستطع النوم حتى انبلج الصباح وسطعت أشعة الشمس مؤذنةً بيوم جديد، يوم السؤال والامتحان، يوم لم ولن أنساه ما حييت، فقد نقش نقشاً في قلبي وعقلي ووجداني، إنه يوم اللقاء والعناق والشوق والحنين لوالديّ، ويوم الألم واللوعة والوداع والفراق من جديد، إنه يوم من أيام الله، إنه يوم والديّ الغاليين، إنه يوم الزيارة.. وهنا يبدأ أصل الحكاية في فصلها ومشهدها الأول.

الفصل الأول/ المشهد الأول من الحكاية:

هذه الحكايةُ حكايةٌ تعرّض لها كثير من الأسرى داخل هذه السجون، وما زالت تتكرر طالما بقي الاحتلال جاثماً على أرضنا، وطالما بقيت السجون تكتظ بالأسرى، أسرى الحرية والعزة والكرامة والفخار، حكاية إنسانية من الدرجة الأولى، حكاية لا يتعرض لها إلا الأسرى الفلسطينيون، فهم الذين حُرِموا من كل شيء، حتى من أقل حقوقهم الإنسانية ، ألا وهو اللقاء الطبيعي ما بين الأسير وأهله الذي كفلته الشرائع والاتفاقات الدولية كافة، ومنظمات حقوق الإنسان في العالم، وعلى رأسها اتفاقية جينيف، إلا أن الاحتلال الإسرائيلي يضرب كل ذلك بعرض الحائط، ليجرّع الأسير الفلسطيني وعائلته معاناة مريرة.

في آخر زيارة كانت لي، أبلغتني والدتي الغالية أن والدي يتحرّق شوقاً لرؤيتي، لكنه في الوقت نفسه متوجّس جداً من الزيارة، كي لا أُصدَم من هول مرضه، ولا يريد أن أراه على كرسي متحرك، كي لا يثقل حملي وهمي فوق حمل وهمِّ السجن، فقلت لوالدتي: لا تنصتي لهواجسه، وأحضروه إلى الزيارة المقبلة مهما كان الوضع مؤلماً وصعباً، وما شاء الله له أن يكون سيكون.

وبعد انتهاء هذه الزيارة مع والدتي الغالية، عدتُ إلى غرفتي وأخذتُ أفكر بما قاله أبي، فقلت في نفسي: أيُّ أب هذا؟ فمن زاوية هو متشوق جداً جداً لرؤيتي، وكان دائم السؤال عني طوال فترة مرضه وهو في المستشفى، ومن زاوية أخرى لا يريدني أن أراه على كرسيّه المتحرك كي لا أتأثر وأحمل همّه خوفاً على مشاعري وخوفاً على ردة فعلي... لله درّك يا والدي الحبيب حتى في آخر لحظاتك وفي أشد وأحلك أيام مرضك، أنت خائفٌ عليّ وعلى شعوري، وتُفكّر بي، ولا تريد أن تثقل همي، فوالله إن كل أهوال وحمل الدنيا تهون عندك يا أعظم وأحنّ أب في الدنيا، بل وتشفي قلبي نظرةٌ إلى وجهك المضيء بنور الإيمان والقدس والأقصى، وبنظرة منك يا أعز وأحن وأطيب أمٍّ في الدنيا.

آهٍ.. ثم آهٍ.. ثم آه.. ثكلتني أمي.. بأيِّ موقف أنا وُضِعت، وبأيّ حروف سأكتب، وبأيّ كلمات سأُعبّر عن صبر وتضحية ومعاناة وثبات وجَلَد ومواقف وشوق ولوعةٍ وألم وفراق والديّ الغاليين، فمهما خطّ قلمي لكما فإنه ليس بمقدوري إلا أن أقول: لله

درّكما وعلى الله أجركما، فمن أجل فلسطين أرض الرباط والأنبياء... ومن أجل القدس ومهد الديانات... ومن أجل الأقصى والمسرى نحن نُقدّم أغلى ما نملك... الحمد لله على هذه الحال، وعلى كل حال دائماً وأبداً.

وجاء يوم اللقاء... ذاك اللقاء الإنساني العميق، ورغم أنني هيأت نفسي لهذا اليوم المجهول قدر المستطاع، إلا أن الخوف كان يتملكني وفي الوقت نفسه كان الشوق والحنين واللقاء يُسرّع الخطوات والدقائق المتبقية لهذا اللقاء، فبعد أن انبلج الصباح وسطعت الشمس بنورها مؤذنةً ببدء يوم جديد، يوم (٢٠٠٥/٤/٢) يوم الزيارة واللقاء بوالديّ، جهزت نفسي واضعاً لها بعض المحاذير التي كان أهمها: أنه مهما كان اللقاء صعباً فلن أسمح لعينيّ أن تذرفا الدموع على وجنتي خوفاً من أن يؤثر ذلك على والديّ سلباً، وكي يرياني بأفضل صورة، قويّاً شامخاً متشوقاً لرؤيتهما، مع الإشارة هنا إلى أن تصريح الزيارة يشمل موافقة على زيارة والدتي ووالدي (رحمه الله) فقط، دون السماح لأي من إخوتي وأخواتي بحضورها، ومع السماح بالتقاط صور مع والدي (رحمه الله) فقط دون والدتي.

ومع بدء ذلك اليوم، ومنذ الصباح الباكر، بدأتُ بتجهيز نفسي لذلك اللقاء العظيم، فذهبت للاغتسال، وارتديت زِي الأسير الخاص بالزيارة (اللباس ذو اللون البني) ثم صليت صلاة الضحى، وركعتين لله تعالى بنيّة التوفيق، وبأن يثبتني الله «عز وجل» ويعينني على هذا اللقاء، ثم تعطّرت، وأخذ إخوتي الأسرى الذين يقبعون معي في غرفة السجن بالدعاء لي بالتوفيق في هذا اللقاء، وأخذوا يحثونني على الثبات، وبألا أضعف أمام والديّ مهما كان اللقاء صعباً، وفي أثناء ذلك جاء السجان ليأخذني للزيارة، وفي تلك اللحظة بدأت دقات قلبي تتسارع، وأخذت أمواج أفكاري تلطمني وتعطفُ بي يمنةً ويسرةً، حيث إن المسافة بين القسم الذي أقبع فيه، وبين غرفة الزيارة حوالي (٢٠٠ م)، وبدأت أتخيل طوال الطريق كيف سيكون حال الزيارة واللقاء، لقد كنت كأني أُساق لمكان سأذهب إليه لأول مرة، ولا أعرف عنه شيئاً، وبقيت هكذا حتى أدخلني السجان إلى غرفة مفتوحة، فيها بعض الطاولات والكراسي منتظراً قدوم والديّ، فأخذت أسير في هذه الغرفة روحةً ورجعةً ودقات قلبي آخذة بالتسارع أكثر وأكثر، لدرجة أن قدمَيَّ لم تعد تحملانني، فجلست قليلاً على الكرسي لآخذ شهيقاً وزفيراً لعلّي أُهدّئ من روعي ومن دقات قلبي، وخلال الانتظار رأيتُ أهالي الأسرى يمُرون من أمام الغرفة التي أُوجد فيها، ذاهبين باتجاه غرفة الزيارة العامة لزيارة أبنائهم الأسرى، مُلوّحين لي بأيديهم مُرحّبين، ومنذ تلك اللحظة بدأت المفاجآت والصدمات، فسمعت صوتاً يصرخ باسمي أكرم- أكرم، فقلت في نفسي: إن هذا الصوت مألوف لديّ، فما أن نظرت بين الزُّوّار اتجاه ذلك الصوت باحثاً بين الأهالي، فإذا بي أُشاهد أختي صابرين التي كانت تبلغ من العمر تقريباً (١٨ عاماً) وبصحبتها أخي الصغير مهند الذي كان يبلغ من العمر (١٢ عاماً) وشقيقي الأصغر طارق الذي كان يبلغ من العمر (١٠ سنوات)، وإذا بهم يقفون أمام باب الغرفة التي يحرسها سجّان، فهرعت أختي وكذلك إخوتي على باب الغرفة بلهفة وشوق يريدون الدخول، علماً بأن الضابط المسؤول قد أخبر السجان الذي يقف على باب الغرفة أنه مسموح لي بزيارة خاصة لوالديّ فقط، لكن في هذه اللحظات أعمى الله بصر هذا السجان، حيث تدخلت فوراً وقلت له إن لي زيارة خاصة مفتوحة مع عائلتي، وأنت تعلم ذلك، وهؤلاء إخوتي، فإذا به يسمح لهم بالدخول عندي رغم أنه غير مسموح لهم بالدخول حسب التصريح الممنوح لي، فأخذت أسلّم على أختي وإخوتي بشوق وحنين لا يوصف، واختلطت المشاعر بعضها ببعض، فهذه هي المرة الأولى أيضاً

منذ تسع سنوات التي ألمس فيها أحد أفراد عائلتي، فجلست على الكرسي، وجلست أختي على يساري، وأخواي أمامي على كرسي خشبي، كنت جسداً ببعض روح، لا أعرف ما الذي يدور حولي، ولا ما الذي حصل، فتساءلت بيني وبين نفسي وأنا أنظر إلى أختي وإخوتي: هل أنا في حلم أم في حقيقة؟ هل هؤلاء حقاً إخوتي أم أنه سراب لاح لي فجأة بالأفق، مشاعر ومواقف سريعة اختلطت بعضها ببعض، فقاطعني صوت أختي قائلة لي: ما بك!! فتمالكت نفسي على الفور، وأخذت أسأل عن أحوالهم وأخبارهم وعن أبي وأمي لماذا لم يأتوا معهم، فقالت لي: إن والدي سيدخلونه من مدخل خاص مناسب للكرسي المتحرك، فأخذت أتحدث معهم بشوق ولهفة حتى قدوم والديّ، فدخول إخوتي لم يكن بالحسبان وكأنه هدية من رب السماء، هدية طيبة مباركة من عند الله،

وكأن الله " جل في علاه" يخاطبني (وفي السماء رزقكم وما توعدون)، فقد كانت مفاجأة لم أتوقعها ولم أفكر بها حتى، وكانت أُختي تتحدث معي بلهفة وشغف كبيرين، لدرجة أنها لم تترك يدي طوال الفترة التي أمضتها معي، أما إخوتي- فمهند تحدث معي ببعض الكلمات التي أخرجها بصعوبة، وأخي الصغير طارق كانت الصدمة بادية على وجهه، ولم يتحدث ولا بكلمة، فكان يحدّق بي وكأن شيئاً غريباً نزل من السماء لم يكن يتوقعه، كيف لا وأنا تركته عند اعتقالي صغيراً يبلغ من العمر سنة ونصف السنة، فهو لم يعش معي ولم يعرفني، ولم يتعرّف عليّ إلا عن طريق زيارات الأهل المتفرقة، ومن خلف القضبان والشبك الذي يفصل بيننا، وكذلك أخي مهند الذي تركته وعمره(٣ سنوات)، فتخيلوا معي يا كرام، كيف كان هذا الشعور، سواءً على صعيدي الشخصي أو على أنفسهم هم، والله لا يمكن وصفه- حيث تختلط فيه المشاعر، الشوق بالألم.. والحنين بالقلق، شعور صعب ومؤلم.

واستمر اللقاء على هذه الحال، حتى نادى السجان قائلاً: أكرم هيّا، سنذهب إلى غرفة أخرى، فوالداك ينتظرانِك فيها، لأن مدخل هذه الغرفة صغير، لن يستطيع الكرسي المتحرك أن يمر فيه، سمعتُ ما قاله السجان لي، لكن من هول الموقف الذي أنا فيه مع إخوتي، لم أتحرك من مكاني وكأني طفل صغير لا يعرف ما يدور حوله ولا كيف سيتصرف، فنادى عليّ السجان مرة أخرى: هيا بنا، فوالداك ينتظرانك، فسلمت على أختي وأخويّ مودعاً إياهم والحسرة تعتصر قلبي، فتمسكت بي أختي بشدة وقالت لي: إلى أين أنت ذاهب وتتركنا؟ فقلت لها: ذاهب لأرى والديّ فهما ينتظرنني في غرفة مجاورة، فقالت:

ابقَ معنا وقتاً أطول، لم نرك بعد، فقلت لها: ليس الأمر بيدي، فودعتها وإخوتي وكأني لن أراهم بعد اليوم، وأنقذت نفسي من بينهم بصعوبة، وقد استمر هذا اللقاء مدة سبع دقائق، فكان هذا اللقاء هو الصدمة الأولى بالنسبة لي قبل زيارة والديّ، فمن جانب كنت أنتظر لقاء والديّ فقط، ولم يكن بالحسبان أن أرى أحداً غيرهما على ما هو مصرّح لي حسب تصريح الزيارة، ومن جانب آخر، كيف كانت ردة فعلي وكذلك إخوتي، كنت غير مصدّق لما حدث، هذا عدا عن رهبة الموقف الذي وضعت فيه، آه... لن أستطيع أن أقول عن ذلك إلا حسبي الله ونعم الوكيل، وكفى بالله حسيباً.

ورافقني السجان ليأخذني إلى الغرفة التي ينتظر فيها والداي، وخلال الطريق التي تستغرق ثوانيَ معدودات، تملّكني خوف وقلق جديد على ما حدث باللقاء مع إخوتي، فقلت في نفسي: إذا كان اللقاء مع إخوتي صعباً جداً بهذا الشكل، فكيف سيكون اللقاء مع والديّ، فتملكتني الرهبة مجدداً بشكل كبير، ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، هل أطلب من السجان أن ينتظر قليلاً حتى ألتقط أنفاسي وأردّ روحي فأهيئ نفسي بشكل أفضل، لأخرج من هول وآثار الصدمة الأولى من لقائي مع أخوتي، أم ماذا عليّ أن أفعل أو كيف أتصرف، لكن السجان قطع حواري الداخلي هذا معلناً بدأ المشهد الثاني من الحكاية.

المشهد الثاني:

عندما وصلنا الغرفة المقصودة، وفُتح لي الباب للدخول كانت الصدمة الثانية، حيث وقفت على باب الغرفة متجمداً من هول المشهد، فقد رأيت والدي - الذي للحظات لم أعرفه -جالساً على كرسيّه المتحرك، وقد اختلفت ملامح وجهه وجسمه النحيل وشكله من شدة المرض وكثرة العمليات، ولم أتوقع أن أشاهده بهذا الشكل، وبجانبه تجلس والدتي، فارتميت في أحضان والدي مُقبّلاً يديه ووجنتيه ورأسه، والدموع تنهمر بغزارة من عينيه غير مصدق أنه عانقني ولمسني لأول مرّة بعد تسع سنوات من الاعتقال، وانتقلت إلى حضن أمي الغالية مقبّلاً يديها ووجنتيها ورأسها غير مصدقة كذلك، أنها - وبعد طول فراق- عانقتني، ها نحن أولاء تقابلنا أخيراً من دون حاجز يفصلنا، وعيناها تفيضان دمعاً، وابتسمت إبتسامة والله لو وزّعت على الكرة الأرضية ما وسعتها، ابتسامة عزة وفخار وتحدٍّ للسجان، أنها رأتني بعد طول غياب دون حاجز رغم صعوبة الموقف الذي نحن فيه.

فجلست بينهما كي أطمئن على أحوالهما وأخبارهما، وقال لي أبي (رحمه الله): الحمد لله أني رأيتك بعد هذه السنين الطويلة وجهاً لوجه، رغم أنف السجان الذي أبى طوال هذه السنين أن يجمعنا دون حاجز، وأخذت أسأل وأطمئن عن أخباره وصحته فقال لي: لقد جئت كي أودعك ولن تراني بعد هذا اليوم!! فوقعت كلماته عليّ كالصاعقة، فقلت له: يا والدي الحبيب، أنا لا أوافقك الرأي... وإن شاء الله ربنا سيشافيك، وسأراك مجدداً بصحة أفضل، لكنه أصرّ على أن هذه المرة ستكون الأخيرة التي سيشاهدني فيها، حقاً لقد شعرت وكأنه يودعني، فانتقلت إلى والدتي كي أغيّر الجو قليلاً ولكي أطمئن عليها لأني أعرف أنها لا زالت تخفي عني تفاصيل مرض والدي الذي كان بدوره ينظر ويسمع باستغراب: هل هذا فعلاً ولدي أكرم؟ أم أنا بحلم؟ فلقد رأيت في عيونهم مشاعر الشوق والحنين وألم المعاناة وألم الفراق، وفي أثناء هذه الأجواء الصعبة التي لا أتمناها لإنسان على وجه الأرض، كادت الدمعة تسقط من عيني، فتمالكت نفسي مخاطباً إياها: ألم نتعاهد أنه مهما كان الأمر صعباً لن أذرف دمعة من عيني؛ كي لا أسبب لوالديّ الغاليين الألم، فضبطتُّ نفسي، لكن لو كان هناك جرّاح، وكشف عن صدري لرأى بركاناً يتفجر لهباً بداخلي من هول الموقف، واستمر هذا البركان يغلي في داخلي، بل ويزداد لهباً طوال

الزيارة، ولم أسمح له بالانفجار ضاغطاً نفسي مهما كلّف الثمن.

فتابعت الحديث مع والدي (رحمه الله)، فأخذ يقص عليّ ألم المرض والعمليات التي أُجريت له، وأنه لن يستطيع أن يمكث في المنزل بسبب حالته الصحية، وعليه البقاء فقط في المستشفى كي تتم معالجته بالشكل المطلوب، وأخذ يحدثني عن مريض معه في الغرفة نفسها مصاب بجلطة مثل حالته، وهو ألماني الجنسية، وأن عائلتي وعائلته تظلان معاً باستمرار بسبب مكثهم الدائم في الغرفة نفسها، فقلت له مداعباً: ها قد أصبح لك صديق من ألمانيا، وأمورك تمام، فردّ عليّ قائلاً: الله يجيب يلي فيه كل خير.

وأخذ يسألني عن أحوالي وصحتي، فقلت له: إنني بألف خير ولا تقلق عليّ، فقط اهتم بصحتك وأن عجّل لنا بشفائك بإذن الله، فردّ عليّ بكلمة والله لازالت تتردد في أُذنيّ وستبقى ما دام فيّ قلبٌ ينبض قال: الله يرضى عليك يا أكرم دنيا وآخرة، سمعتها منه عندما كنت أعيش بينهم قبل اعتقالي، لكن لم أسمعها بهذه النبرة اليقينية، فوقعت على مسمعي وقلبي مثل الشهد والبلسم تمام الرضا، وعلى صدري الذي يغلي فيه البركان مثل جبل ثلج يبرّده، والله إنها هدّأت من قلقي وروعي، ومن هول ما أمرّ به، فرِضَا الوالدين هو من رضا الله «عز وجل»، فيكفيني أن أخرج من هذه الدنيا الفانية برضا الله سبحانه، ثم برضا الوالدين.

أما الصدمة الثالثة- التي أدمت قلبي ولم يكن لي علمٌ بها، هو عندما أخبرني والدي (رحمه الله) في منتصف الزيارة قائلاً: يا أكرم أنا لا أستطيع مشاهدتك ورؤية ملامحك، فقط أشاهدك كظل عندما تتحرك، فأدركت حينها أن كثرة الأمراض التي أصابته وتحديداً مرض السكري قد أثّرت على الرؤية عنده، فعندما سمعت ذلك صُدمت وتوقف لساني عن النطق والحديث، فقلت في نفسي يا الله ثبتني ولا تصدمني أكثر من ذلك فلم أعد أحتمل، يا الله ثبّتني وقوّني ولا تخذلني، فنظرتُ إلى أمي الحبيبة وأخذَتْ عيناي تخاطب عينيها متسائلاً: لماذا لم تخبريني بهذه التفاصيل؟ لماذا عليّ أن أتعرّض لهذه الصدمات؟ ألم أقل لكِ إنه في نهاية الأمر سأعرف الحقيقة؟!.

في هذه اللحظات كان أحد السجّانين في الغرفة نفسها يقف خلفي من باب المراقبة والحراسة، وهو من أصل درزي يعرف اللغة العربية، فسمع وشاهد كل ما دار من حديث بيني وبين والدي (رحمه الله)، عند منتصف الزيارة لم يتحمل هذا السجان ألم

ومعاناة هذه الزيارة، فخرج من الغرفة حتى انتهاء الزيارة، تخيّلوا معي كيف بربكم... إن كان السجان نفسُه لم يتحمل هذه المواقف الإنسانية، فكيف بي أتحمل كل هذه الصدمات، لقد كنت في شكلي الخارجي أمام والديّ أتظاهر بالقوة والتماسك، لكن في حقيقة الأمر كان داخلي في حالة انهيار وحُرقة وألم لا يعلم مداها إلا الله «عز وجل».

كان والدي (رحمه الله) طوال الزيارة غير مصدق أني أجلس أمامه وأحدّثه، وكانت دموعه تسيل على خدّيه بين الفينة والأخرى، وأخذ يحدثني عن العائلة وعن بعض الأمور، وقد كانت له علاقة طيبة مع ذوي الأسرى- والأسرى أنفسهم، خاصة أنه كان يعمل متطوعاً في لجنة أهالي أسرى القدس، وهو معروف لدى الجميع، فأخذ ذلك جزءاً من الزيارة، وقد أوصاني بإلحاح بالأسرى، وبأن نكون دائماً معاً ويداً واحدة، وأن نكون قريبين من بعضنا بعضاً، وقال أيضاً: أنتم الأسرى أفضل طبقة في المجتمع وصفوته، لذلك حافظوا على ذلك، وكونوا دائماً عند حسن ظن شعبكم بكم، فهو يصبّ أمله عليكم ويفتخر بكم، وأخذ يوصني بنفسي جيداً، وأن أكون عند حسن ظنه دائماً، وقال: يكفيني أنك رفعت رأسي عالياً، وربنا يرضى عليك ويفرّج كربك أنت وجميع إخوانك الأسرى.

كنت أنظر لوالدي (رحمه الله) وأستمع لكلماته الصغيرة بحجمها، الكبيرة جداً بمعانيها، ويوصني بها وكأنه فعلاً جاء ليودعني، وأن هذا اللقاء سيكون الأخير بيننا، وكنت أنظر لوالدتي وأسألها عن كثير من الأمور بما يخص حالة والدي المرضية، لأني في كل لحظة أكتشف شيئاً جديداً خلال هذه الزيارة مما لم أكن أعرف عنه، وكانت تشرح لي، وكانت تنصت جيداً لكلام والدي (رحمه الله) والحسرة والألم يعتصرانها ودموعها الغالية تنساب على وجنتيها بين الفينة والأخرى، فهي واقفة بين نارين، وفي الوقت نفسه أنا أيضاً واقع بين نارين، فبالنسبة لوالدتي الغالية والحنونة هي واقفة بين نار مرض والدي (رحمه الله) ومعاناته وألمه ووضعه الذي يزداد سوءاً بسماعها لكل الحديث الذي دار بيني وبين والدي (رحمه الله) مودعاً لي، وبين نار لقائها وفراقها لولدها، والله إنها من أعجب المفارقات، فرحة اللقاء التاريخي بولدها لأول مرة دون حاجز من السجان، وحسرة وألم ولوعة الفراق بعد هذا اللقاء، أما على صعيدي الشخصي فحدّث ولا حرج، فأنا واقع بين وجعي على مرض والدي (رحمه الله) وطريقة حديثه وكأنه فعلاً جاء ليودعني ولن أراه بعد اليوم، وبين نار والدتي الغالية وحسرتها ودموعها الغالية.

ما الذي يدور؟... وما الذي يحصل؟ فذاك لا يعلمه إلا الله وحده، شعور مختلط متلاطم كأمواج البحر، وروحةً وجيئةً كالمد والجزر، أيُّ موقف أنا فيه... موقف لا أُحسد عليه لا أنا ولا والدتي الطيبة ولا والدي (رحمه الله)، لا زالت الزيارة مستمرة بفرحها وألمها، لكنها قاربت على الانتهاء، ومن هول وكِبَر الحدث والانتقال من صدمة إلى أخرى، تشوّش عقلي وتلعثم لساني ولم يعد يستطيع الحديث مثل طفل ضائع ينتظر من يساعده وينقذه مما هو آتٍ ويأخذه إلى بر الأمان.

تحدثت مع والدي (رحمه الله) موصياً له أن يهتم بصحته جيداً، وأن قلوبنا معه، ودعاؤنا له بالشفاء العاجل على أمل اللقاء القريب، وكذلك تحدثت مع والدتي الغالية أن يعينها الله «عز وجل» على هذا الوضع الجديد، وأن الله سبحانه معنا وسيُيسّر لنا أمورنا بإذنه تعالى، واستمرت الزيارة على هذه الحال حتى جاء الضابط المسؤول كي يقوم بتصويرنا أنا ووالدي، فطلبت منه أن يكون التصوير مع والديّ معاً لكنه رفض وقال لي: إن الموافقة على التصوير فقط مع والدك فتضايقت والدتي، ماذا عليّ أن أقول في هذا الموقف، إلا أن هذا هو دأب الاحتلال والسجان الذي يأبى إلا أن ينغص أي فرحة إنسانية على الأسير وأهله، فجلست بجانب والدي وتصوّرت معه ثلاث صور فوريّة كانت الأخيرة معه، فأخذت الصور وأبقيتها معي، وأخبرت والدتي أني سأبقيها معي أتأملها وسأخرجها لهم في الزيارة المقبلة، وما هي إلا دقائق حتى آذن الفراق، فإذا بالسجان يأتي ليُعلمنا أن موعد الزيارة قد انتهى، وجاء الضابط المسؤول ليصطحبني إلى غرفتي، فكانت هذه اللحظة الأكثر إيلاماً عليّ وعلى والديّ، وما أن سمع والدي (رحمه الله) أن الزيارة قد انتهت حتى فاضت عيناه ... لا يريد مفارقتي، فتوجهت إليه مُقبّلاً يديه ووجنتيه ورأسه مودعاً، والقلب يعتصر ألماً ووجعاً لا يعلم مداه إلا الله «عز وجل»، ثم انتقلت إلى والدتي الحنونة مقبلاً يديها ووجنتيها ورأسها، وعانقتني عناق الأم لابنها، وقاطعنا السجان يستعجلني قائلاً: هيا يا أكرم، فقد انتهت الزيارة، فماذا عليّ أن أفعل في هذه اللحظات الأليمة، وكيف سأترك والديّ وأفارقهما، ووالدتي قابضةً بيدي وكأنها تقول لي، لا تنصت له، ابقَ معنا، لم نشبع من رؤيتك بعد، ومتى سيأتي ذلك اليوم لآخذك بيديّ إلى حيث كنت وولدت، إلى القدس والأقصى.نعم لقد كان فراقاً صعباً، وموقفاً إنسانياً أليماً جداً، ووداعاً مريراً موجهاً لا زال يلازمني... وسيبقى يُلازمني ما حييت، إنه الوداع!! وداع لا لقاء بعده لوالدي (رحمه الله)، وخرجت رغماً عن أنفي،

وعينا والدتي ترمقانني بحزن ولوعة ودموع تسيل على خدّيها، ووالدي (رحمه الله) ودعني بكلماته العذبة الطيبة، بصوته الذي أنهكه المرض، وعيناه تذرفان الدموع، لم أشهد مثلها في حياتي قط، إنها من أثقل وأصعب اللحظات في حياتي، بل ومن أصعب المواقف الإنسانية التي تعرضنا لها، فأودعتهم برعاية الله وحفظه وأمانته، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

خرجت من غرفة الزيارة، والسجان أمامي ليصطحبني إلى غرفتي، في هذه اللحظات أنا لست أنا، وكأني شخص آخر، خرجت من غرفتي بصورة وها أنا ذا عائدٌ إليها بصورة أخرى، مشوّش العقل والتفكير، قلبٌ يعتصره الألم على فراق الأحبة، وفي صدري بركانٌ واهبٌ ثائر على وشك الانفجار، وقدماي لم تعد تستطيعان السير، وطوال المسافة من مكان الزيارة حتى غرفتي رقم (١٦) في قسم ٣ والتي تبلغ (٢٠٠م) لم ألتفت إلى شيء، أو بالأحرى لم أرَ شيئاً أمامي، وكأن على عينيّ غشاوة، فقط أسير حيث السجان يأخذني، تارةً يمنةً وتارةً يسرةً، صاعداً الدرج ولم أنبس ببنت شفة، كنت في وضع من لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، خليطاً ومزيجاً من المشاعر الممزوجة بالألم والمعاناة ولوعة الفراق، لهول ما رأيت وشاهدت في هذا اللقاء، فماذا كان عليّ أن أفعل حينها!! لا أعلم، وبقيت على هذه الحال حتى أوصلني السجان باب القسم الذي كان ينتظرني على بابه المتحدث باسم الأسرى وممثلهم أمام إدارة السجن، حيث أخبرني فيما بعد أن ضابط القسم عندما جاء لكي يصورني مع والدي، ورأى الموقف والمشهد بيني وبين والديّ أخبره أنه لم يتحمل ذلك الموقف الإنساني الصعب، فتخيلوا معي: إذا كان هذا هو موقف السجان من موقف أو مشهد شاهده، فكيف كان موقفي وموقف والدي؟!. استقبلني ممثل الأسرى مُرحّباً ومُباركاً لي على تلك الزيارة، فنظرت إليه وابتسمت ابتسامة شكلية دون أن أستطع نطق كلمة، وواصل معي السير حتى أوصلني إلى باب غرفتي وفتح لي الباب ودخلت، وهنا بدأت أحداث المشهد الثالث من أصل الحكاية، ما بعد الزيارة.

أحداث المشهد الثالث:

عند دخولي للغرفة سلّم عليّ إخوتي السبعة الذين يشاركوني الغرفة مباركين لي بالزيارة، ورددت عليهم بكلمة واحدة فقط لم أستطع الحديث بغيرها: "جزاكم الله خيراً»، وعندما شاهد أبناء غرفتي ملامح وجهي التي لا تُفسَّر، شعروا بأني تعرّضت لموقف لا أُحسد عليه، فوفروا لي الجو بأن أجلس وحدي ومع نفسي قليلاً، وبالفعل ذهبت باتجاه برشي (السرير) وألقيت بجسدي المكلوم الذي لم تتحمله قدماي من هول الألم والصدمة، وأغلقت البُرش على نفسي بستارة، وأخرجت صور والدي الثلاث (رحمه الله) من جيبي، وأخذت أنظر إليها وأنا أبكي بكاءً لم أبكه بحياتي، وكان البركان في صدري قد بدأ بالانفجار وأحرقني، وكنت أنظر إلى صور والدي (رحمه الله) مخاطباً لها: هل ما تحوينه من منظر أو شكل هو والدي... لا ليس والدي... وأنا أزداد بكاءً لدرجة أن وسادتي امتلأت من شلالات وأنهار الدموع، مستذكراً شريط والدي طوال حياتي معه ما قبل الاعتقال، وأثناء الاعتقال، وما قبل المرض وما بعده، وبقيت على تلك الحال لفترة طويلة، حتى غفت عيناي من شدة البكاء والتعب والألم، ولم أستيقظ من نومتي تلك إلا قبيل وقت المغرب، وصور والدي (رحمه الله) على صدري، لم أستطع التحرك من برشي، وأخذت أسأل نفسي: أين أنا؟ ما الذي جرى؟ كيف حدث هذا؟ ورفعت صور والدي (رحمه الله) بيديّ وأخذت أدعو له ، واحتسبته عند الله «عز وجل» قائلاً: يا الله، يا خالق السماوات والأرض، إني أودعت والدي ووالدتي أمانة عندك يا الله، فاحفظهما واشفِ والدي وخفِّف عنه، وإني راضٍ بقضائك، ولا حول ولا قوة إلا بك يا الله.

وبعد أن صليت صلاة العصر، كنت وحدي داخل الغرفة، حتى عاد أبناء غرفتي من الفورة (الساحة التي نخرج إليها)، وصلّينا صلاة المغرب جماعةً، ثم التفّوا حلقةً من حولي، وأخذوا يسألونني عن الزيارة، وعن والديّ، وكيف سارت الأمور؟

فقصصت عليهم كامل الحكاية، والدموع تهطل في عيونهم غير مصدقين ما حدث معي، وقالوا لي: كان الله في عونك وعون والديك، وقد قصصت علينا كامل الحكاية فتأثرنا ولم نحتمل، فكيف تحمّلت أنت كل هذه المواقف الإنسانية الصعبة، والصدمة تلو الصدمة؟ فكان الله في عونك، لقد شاركوني همي ووجعي، وأخذوا يخففون عني، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

في أول زيارة لي بعد زيارة والديّ والتي كانت في (٢٠٠٥/٤/١٧) جاءت والدتي الغالية إلى الزيارة وهي مسرورة جداً فقالت لي: أنا ووالدك لم نصدق أننا عانقناك وقابلناك وجهاً لوجه دون حاجز يفصل بيننا رغم ألم ولوعة الفراق، لدرجة أنها لم تَنَم تلك الليلة وهي تفكر في ذلك اللقاء التاريخي والإنساني لدينا، وسألتها عن أحوال والدي (رحمه الله) وعن صحته وردة فعله، فتفاجأت من إجابتها، حيث قالت لي: أن أبي (رحمه الله) يهديك أحرّ السلامات، وأنه فرح جداً بتلك الزيارة، وأنه يطلب منك أن تطلب له تصريحاً جديداً كي يزورك مرة أخرى، وأنه تأثر جداً من الناحية الإيجابية رغم أنه عندما طلبته للزيارة في المرة الأولى رفض المجيء؛ خوفاً من أن تراه على كرسيّه المتحرك، لكن بعد تلك الزيارة وكأن الحياة رُدّت له من جديد، وأخذ يحدّث كل من جاء له زائراً في المستشفى، عن ذلك اللقاء، وأنه أخيراً استطاع رؤيتك ومعانقتك دون حاجز يفصل بينكما رغم أنف السجان.

لكن مع كل تلك الأجواء، فقد أخبرتني والدتي أن وضع والدي الصحي يزداد سوءاً، الأمر الذي لم يعد يفاجئني؛ فبعد زيارتي لوالدي (رحمه الله) ورؤيتي له ومعرفة تفاصيل مرضه ووداعه لي بطريقة حرقت قلبي، أدركت أن وضع والدي صعب جداً، وكنت قلقاً عليه وخائفاً جداً من أن يأتيني خبر رحيله عن هذه الدنيا في أي وقت، فأسلمت أمري وأمر والدي (رحمه الله) لله الواحد الأحد، وما قدّر الله له أن يكون سيكون، وليس أمامي إلا التسليم بأمر الله تعالى وقضائه مهما كانت صعوبة الأمر ونتيجته.

أما المشهد الرابع والأخير من الفصل الأول من أصل هذه الحكاية/ فهو المشهد الأكثر أيلاماً في هذه الحكاية، وهو مشهد الختام لها عند ظهر يوم الأربعاء الموافق (٢٠٠٥/٤/١٩)، حيث كنت جالساً في غرفتي رقم (١٦) في قسم ٣ في سجن نيتسان- الرملة، فإذا بثلاثة إخوة أفاضل يدخلون إلى غرفتي بوجوه يُصفّحها الحزن، وقد جلسوا بجانبي ونظرت إلى وجوههم، فبدأت هواجس الخوف تنتابني، فقلت لهم: ما بال وجوهكم قد اعتلاها الحزن؟ نظروا إلى بعضهم بعضاً، وبادر أحدهم بإمساك يدي والضغط عليها قائلاً لي كلاماً عن الصبر وعن القضاء والقدر، وأننا كمسلمين نؤمن بقضاء الله وقدره، ونظرت إلى وجوههم مرة أخرى، نظرة متفحّص، فقرأت في وجوههم أن هناك خطباً جللاً، فتساءلت: يا هل ترى ثمة خطبٌ في القدس حلّ بأبي، أم أن هناك خطباً ما آخر؟ ثم وجهت السؤال لأحدهم قائلاً له: هل أبي مضى إلى رحمة الله؟ فأجابني برأسه: نعم، فاعتصر قلبي ألماً وحزناً

وحسرةً على فراقه، فراق أجبرنا عليه الاحتلال والسجان، فرحل والدي دون أن أتمكن من وداعه، فنطق لساني بإنّا لله وإنّا إليه راجعون، لله ما أعطى، ولله ما أخذ. لقد أستودعته في ذمة الله ورحمته، فقام إخوتي الأسرى جميعهم في القسم وعددهم (١٢٠) أسيراً بفتح بيت عزاء لي في ساحة القسم كي يعزّوني بوفاة والدي (رحمه الله).إن إخوتي الأسرى وقفوا بجانبي وواسوني ولم يتركوني، وكانوا لي بمثابة الأهل، هكذا نحن الأسرى في كل فرحٍ أو ترح نكون دائماً سنداً لبعضنا بعضاً كالجسد الواحد، وعند انتهاء هذا اليوم عدت إلى غرفتي، وقضيت ليلتي على بُرشي، أستعيد ذكريات شريطين في حياتي مع والدي (رحمه الله):

الشريط الأول: أتذكر فيه ذكريات والدي (رحمه الله) معي قبل الاعتقال وأنا بينهم حتى سن (٢٢ عاماً).

والشريط الثاني: أتذكر فيه مسيرة والدي (رحمه الله) طوال سنوات اعتقالي التسع حيث بلغتُ من العمر (٣١ عاماً) وتحديداً شريط أحداث اللقاء الأخير الذي استمر (٤٥ دقيقة) والذي كان الأصعب في حياتي. أخذت أسترجع ما دار في ذلك اللقاء معه (رحمه الله)، فقد صدقت يا والدي يا نور العين، جئتني مودعاً، ولم أصدقك حينما قلت لي: لقد جئت لأودعك، ولن تراني بعد هذا اللقاء، ورضيتَ عني عندما قلتَ لي: روح يا أكرم الله يرضى عليك دنيا وآخرة، كلمات لن أنساها بل حُفرت ونقشت في قلبي وصدري وعقلي، وستبقى ما حييت.

وفي يوم جنازتك يا والدي الحبيب كنت أتمنى أن أودعك الوداع الأخير إلى مثواك الأخير، وألقي عليك نظرة وداع الابن لأبيه، الابن البارّ الذي منعه عَنَت وصَلف الاحتلال والسجان من تلك اللحظة، لكن عزائي يا والدي أنك انتقلت إلى جوار ربنا الكريم الذي لا يُظلَم عند أحد، ويكفيك شرفاً وعزةً وكرامةً أن قدّر الله لك أن تكون من المرابطين في مدينة القدس وبيت المقدس، بل وتُطوى تحت ثرى تراب مدينة القدس بجوار المسجد الأقصى، مسرى نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبجوار الصحابة الأجلّاء: عبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، في مقبرة باب الرحمة، فرحمك الله يا والدي ويا تاج رأسي ونور عينيّ وأسكنك فسيح جناته، وجزاك الله كل خير على صبرك وثباتك ورباطك، وأسألك يا والدي الحبيب أن تسامحني على ما تحملت من معاناةٍ وقهر وحزن وذل بسببي، لكن اعلم يا والدي الغالي أنه ما كان هواي فراقكم، بل فراقي القسري عنكم لم يكن إلا من أجل الله أولاً، ثم من أجلكم ومن أجل شعبي، لتحيوا كِراماً، ومن أجل

الدفاع والذود عنك يا قدس الأقداس، ويا أيها الأقصى الحبيب ويا مسرى رسولنا الكريم محمد (عليه السلام)، فرحيلك وفراقك عني قاسٍ جداً، لكن حب الله أغلى، وفلسطين والقدس والأقصى ترخص لهم النفس وأغلى ما نملك، داعياً الله العلي القدير أن يجمعني بك وبوالدتي الغالية (أطال الله في عمرها) في الفردوس الأعلى، وعلى حوض الرسول محمد (عليه السلام) إنه كريم سميع مجيب الدعاء.

وهناك أمران حصلا مع والدي (رحمه الله) وجب الوقوف عندهما، الأمر الأول: كان بعد وفاته بشهرين، حيث أرسلت لي أختي رسالة لا زلت أحتفظ بها لغاية يومنا هذا، كتبت لي فيها عن موقف حصل أمامها عندما كان والدي (رحمه الله) في المستشفى، وحصل هذا الموقف بعد زيارته الأخيرة لي في سجن الرملة، فقد كتبت لي أنه عندما جاءت لزيارته في المستشفى وأرادت الدخول إلى غرفته طرقت على الباب للاستئذان بالدخول فلم يجب أحد، لكنها سمَعَت صوت حديث يدور في الداخل لكن لا مجيب، فاستغربتْ الأمر فشقّت الباب قليلاً لترى من المتحدث مع أبي فلم ترى أحداً، فوقفتْ صامتة تسمع ما يحدث فإذا به وحده يتحدث قليلاً وينصت، وكأنه يتحدث مع شخص آخر، وبقيت تنصت لحديثه حتى سمعته يقول: روح يا أكرم الله يسامحك، ويفرّج كربك ويرضى عليك، فعندما قرأت تلك الرسالة، انتفض كياني شوقاً وحباً، وبكيت بكاءً لا يعلمه إلا الله ،وتأثرت بهذه الرسالة كثيراً جداً.

الأمر الثاني: أن والدي (رحمه الله) قام بالانضمام متطوعاً إلى لجنة أهالي الأسرى في القدس يعمل ليل نهار، دون كلل أو ملل مع طاقم اللجنة (الذين كانوا جميعهم من أهالي الأسرى)، لكي يتابعوا كل شؤون وأحوال الأسرى المقدسيين، من خلال دعم الأسرى مادياً ومعنوياً وقانونياً، والمشاركة بكل فعاليات دعم الأسرى، وفي اليوم الذي توفي فيه (رحمه الله) كان مقرراً من قبل لجنة الأسرى المقدسيين إقامة حفل تكريم له وتقديم درع تقدير على ما قام به من جهود وخدمة متواصلة للأسرى المقدسيين ومشاركتهم آلامهم ومحنتهم، لكن لم يتم هذا التكريم بسبب الوفاة، فجاءوا معزّين بوفاته، فجاءت الوفود معزّين بكل أطيافهم، وسط حضور كبير ولافت من أهالي الأسرى في بيت العزاء، كنوع من الواجب، ورد الجميل على ما قام به والدي (رحمه الله) من جهود في خدمة ودعم لقضية الأسرى المقدسيين، بكل حبٍ وتحدٍ وثبات.

رحلت يا والدي الحبيب ورحلت قلوبنا معك... رحلت ولن أتمكن من رؤيتك بعد الآن في هذه الحياة الدنيا... رحلت وتركتني وحيداً ولم نكمل المشوار معاً... رحلت بعد مسيرة امتدت تسع سنوات، صبرتَ فيها على اعتقالي، عانيتَ فيها متنقلاً من سجن لآخر من شمال فلسطين حتى جنوبها، متحملاً ألم المعاناة وألم الشوق والحنين، وألم الفراق على أمل من الله «سبحانه" أن تراني خارج هذه السجون الظالم أهلها، لكن صلف وعناد وحقد السجان والاحتلال كان لنا بالمرصاد... رحلت ثابتاً وما بدلت تبديلاً... رحلت يا مهجة القلب والفؤاد عني دون أن أحظى بنظرة أخيرة لرؤية وجهك المضيء بنور القدس والأقصى، أو حتى قبلة أضعها على جبينك... رحلت وتركت والدتي الغالية تكمل هذه المسيرة معي وحدها فقد عانت فيها ولازالت كل أصناف المعاناة لكنها صابرة محتسبة أمرها وأمري لله «عز وجل»، رحلت عنا بجسدك لكن صورتك وروحك باقية وستبقى في قلوبنا وعقولنا... رحلت وذكراك عامرة في قلبي ووجداني وروحي، وعامرة في قلوب مُحبيك الذين عرفوك... آهٍ يا أبي على فراقك الذي أوجعني وآلمني... فسامحني يا أبي إن قصّرتُ معك يوماً ما، فسلامٌ لك، وسلامٌ عليك، يا درّة الفؤاد ويا مهجة القلب، فالله جلّ في علاه لم يقدّر لنا اللقاء في هذه الحياة الدنيا، مع دعائي لله «عز وجل» أن يجمعنا في مكان أطيب، وبصحبة والدتي الغالية على حوض النبي الكريم سيدنا محمد «صلى الله عليه وسلم» وإلى أن يأذن الله لنا بذلك أتركك في رضوانه ورحمته، وسأبقى على العهد كما عرفتني لا ألين ولا أحيد، مكملاً مسيرتي مع والدتي الحبيبة، وأملي بالله «عز وجل» أن يعوضنا باللقاء القريب، وما ذلك على الله بعزيز.

وبدعائي المتواصل وشوقي الذي لا ينفد يُسدَل الستار على المشهد الأخير من الفصل الأول من أصل هذه الحكاية، ليبدأ فصل جديد ومشاهد جديدة، بطلتُها والدتي الغالية دون منازع، والدتي التي ضحّت ولازالت على طريق الحق والثبات والصبر والتحدي والصمود، رغم ألم الفراق ولوعته وما كلّت وما ملّت، رغم مواقف الحزن وبعض من الفرح، والتي حملت الراية وحدها بعد فراق والدي (رحمه الله)، لتكمل المسيرة التي بدأتها مع والدي (رحمه الله) منذ عام (١٩٩٦) ولغاية كتابة هذه السطور في عام (٢٠٢٠) حتى يأذن الله لنا بالفرج القريب ويُلمُّ الشمل من جديد.

مرحلة ما بعد وفاة والدي "رحمه الله"

لقد أُسدِلَ ستار الليل الأول الذي رويتُ فيه بعضاً من معاناة والدي الذي قَصَمَ رحيلُه ظهري، وكسر قلبي وأدمى فؤادي... فبرحيله بتنا أنا وأُمي وحيدَيْن، وهو الذي كان السند والمدد لنا، فمن سيحلُّ مكانه ويملأ الفراغ الذي تركه!! وكيف سنكمل المسيرة دونه!! سوف تُكمل أُمي المسيرة وحيدة معي، متنقلة من سجن لآخر، صابرة مرابطة ثابتة مستعينة بالله «عز وجل»، فبمسيرتها وحيدةً معي، نبدأ مشهدنا الأول من الفصل الثاني من هذه الحكاية.

تبدأ أحداث المشهد الأول من الفصل الثاني من هذه الحكاية من أول زيارة لي بعد وفاة والدي (رحمه الله) وأنا في سجن نيتسان- في مدينة الرملة الذي يقع وسط فلسطين والذي يبعد عن مدينة القدس حوالي (٣٠ كم)، حيث جاءت أمي الغالية لزيارتي وبصحبتها أخي وزوجته، لكنها كانت زيارة ناقصة وكانت غريبة بعض الشيء لم أعتد عليها أن تكون بهذا الشكل، حيث اعتدت في الزيارة بأن تقابلني أمي، ويجلس بجانبها والدي (رحمه الله)، كانت زيارة حزينة مثل أمواج البحر، تثور وتهدأ وأحياناً تتلاطم بعضها بعضاً، فشعوري كان مختلطاً بين مواساتي لوالدتي وبين عدم وجود والدي (رحمه الله)، فبدأت والدتي الغالي بمواساتي على فقدانه وأخذت تصبّرني والألم يعتصرها على فقدانه من جانب، وعلى لوعتها وألمها عليّ من جانب آخر، أما من ناحيتي فقد أخذت أنظر إلى مقعد والدي الفارغ (رحمه الله)، كنت أنظر إلى والدتي، دون أن يغيب عني مكان والدي الفارغ بجانبها، وكنت أنظر وأتخيل والدي (رحمه الله) يجلس بجانبها، أتذكر زياراته وحديثه الحنون، أرى بسماته الدافئة ونظراته الحالمة، أتذكره وهو يُرسل لي قُبُلَهُ المليئة بالدفء والحب والشوق والحنين، فكان شعوراً مختلطاً بالحزن وألم الفراق، وشعوراً ممزوجاً باللوعة والألم على والدتي الحنونة.

هذه الزيارة الأولى كانت صعبة علينا جميعاً لدرجة أننا كنا نُخرج الكلام من أفواهنا بصعوبة، لا نعرف كيف مرّت بنا مدة الزيارة (٤٥ دقيقة) وكأنها لمحة، أخذنا نتحدث فيها عن والدي (رحمه الله) وعن ذكرياتنا معه قبل الاعتقال وبعده، وعن آخر أيّامه ولحظاته، كيف قضاها، وكيف مرّت الأيام الصعبة والأليمة على والدتي الغالية منذ الوفاة ورحيله عنا ولغاية هذه الزيارة، وفي نهاية الزيارة ودعتها قائلاً لها: كوني مع الله

ولا تبالي، واحتسبي والدي (رحمه الله) عند الواحد الأحد، وأن أمامنا مشواراً ومسيرة طويلة مليئة بالألم والمعاناة، موصياً إياها أن تكون كما عهدناها، قوية رافعة القامة والهامة، صابرة ثابتة على الدرب ومرابطة رغم مرارة الطريق والمسيرة.

دقَّ جرس الزيارة معلناً انتهاءها، فودعتها ملوحاً لها بيدي من خلف الشبك والحاجز الذي يفصل بيننا على أمل اللقاء القريب بها، وعدت إلى غرفتي مليئاً بالشوق والحنين لوالدي (رحمه الله)، ومشفقاً على والدتي الغالية من ثقل الأمانة وطول المسيرة معي.

وفي تلك الليلة بعد الزيارة، حان موعد النوم بعد أن أُطفئت الأنوار، وذهبت إلى بُرشي لأضع رأسي على الوسادة، لكن عينيَّ لم تستطيعا النوم، وأخذ التفكير بوالدي (رحمه الله) وبوالدتي يأخذني يمنةً ويسرةً، مُسترجعاً شريط الذكريات والأحداث، فاغرورقت عيناي وسالت الدموع على وجنتيّ من شدة شوقي وحنيني وافتقادي لوالدي، فخاطبت نفسي: كيف سأكمل المسيرة دونك يا أبي؟ كيف ستكمل أمي الحنونة المسيرة معي دونك يا أبي؟ وأخذت الأفكار تموج وتسرح تارة هنا وتارة هناك، حتى استسلمت عيناي للنوم.

الانتقال إلى سجن جلبوع - والزيارة المفتوحة الخاصة الأولى

المشهد الثاني من الحكاية/ جاءت أحداثه عندما تم نقلي في نهاية عام (٢٠٠٥) من سجن نيتسان- الرملة إلى سجن جلبوع الواقع في شمال فلسطين المحتلة القريب من سهل بيسان المحتل على طريق الأغوار، والذي يبعد عن مدينة القدس مدة ساعتين ونصف الساعة، حيث درجة الحرارة الحارقة ومستوى الرطوبة القاتلة، وانتشار البعوض القارص.

في أحد الأيام من تلك السنة (٢٠٠٥) حضرت والدتي لزيارتي في سجن جلبوع، وحضر بصحبتها أحد إخوتي، وقد كانا خرجا، كما باقي عائلات الأسرى، من بعد صلاة الفجر إلى مكان تجمع أهالي الأسرى في منطقة باب العامود، للصعود إلى الحافلة التي ستقودهم إلى سجن جلبوع لزيارة أبنائهم الأسرى هناك، وكانوا قد أحضروا معهم بعضاً من الطعام السريع، وبعضاً الماء بسبب طول المسافة والسفر، ومدة الانتظار الطويلة على بوابة سجن جلبوع، حتى يتم السماح لهم بالدخول إلى غرفة الزيارة، وقامت والدتي الغالية بتفحّص هذا المكان الجديد من حيث إجراءات السجان الجديدة والواقع الجديد والتعرف على ذوي أسرى جدد، وكانت هذه الزيارة الثانية لوالدتي بعد وفاة والدي (رحمه الله)، ورغم مرور شهرين على وفاته إلا أنه وبلا شك كان حاضراً بروحه، وأخذنا الحديث عنه وعن مآثره وعن افتقادنا له، وخلال حديث والدتي عنه تخيّلته جالساً على يمينها وكأنه ينظر إليّ ويخاطبني... وكأنه لم يتركنا بعد، آهٍ يا أبي!! ماذا فعلت بنا... رحلت عنا بجسدك لكن روحك بقيت تعيش بيننا وستبقى إن شاء الله «عز وجل»، وانتهت الزيارة ونحن على تلك الحال، وأنا مُشفق على أمي الحنونة التي لا يزال الحزن يرسم ملامح وجهها وحياتها بفقدان أبي (رحمه الله)، فماذا عليّ أن أفعل!! فمن جهة لا زالت ذكريات وروح والدي (رحمه الله) تطوف حولي، ومن جهة أخرى حزن والدتي الكبير عليه، وكانت هذه الحال سيّد الموقف، لكن... رغم هذا الحزن والألم لابد أن تستمر الحياة، فالمسيرة طويلة ومليئة بالمعاناة، فدقّ حرس الزيارة معلناً انتهاءها، فسلمت عليها ملوحاً بيدي إلى لقاء آخر.

فخرج كلٌ منا إلى طريقه من حيث أتى، والدتي خرجت من غرفة الزيارة باتجاه حافلة الصليب الأحمر التي أقلتهم من مدينة القدس إلى سجن جلبوع مع ذوي الأسرى

الآخرين، مسافرين مدة ساعتين ونصف الساعة، عائدين من حيث جاءوا، كلٌ إلى منزله وعائلته يعيشون أجواء هذه الزيارة، حاملين معهم أجواء الفرح والألم في آن واحد، الفرح برؤية أبنائهم والاطمئنان عليهم، والألم على فراقهم واستمرار معاناتهم. أما الأسير فيعود من غرفة الزيارة إلى قسمه وغرفته التي تبعد عن غرفة الزيارة مسافة (١٠٠م)، والأخبار والشوق والحنين للأهل وأجواء الزيارة تدور في تفكيره، نطلق عليها نحن الأسرى مصطلح (تحميض فيلم الزيارة).

وبعد الزيارة أخذت أفكر : ماذا أستطيع أن أصنع لوالدتي الغالية لأدخل عليها ولو قليلاً من الفرح ولأخرجها من جو الحزن وأنا داخل السجن، فبدأت أتشاور مع إخوة لي من الأسرى ممن يعرفون حكايتي علّ أحداً منهم يشير عليّ برأي ما، خاصة وأنني انتقلت إلى سجن جلبوع حديثاً، ولا أعرف كامل القوانين الخاصة به بعد، مع العلم أن هناك قوانين عامة من مصلحة السجون لكل سجن من السجون الإسرائيلية، إلا أن هناك بعض الصلاحيات لمدير السجن تختلف من سجن لآخر، فأشار عليّ أحد إخوتي الأسرى بعد حديث طويل أن هناك قانوناً يسمح لكل أسير بزيارة خاصة مفتوحة لعائلته في غرفة منفصلة دون حاجز يفصل بينه وبين أهله مرةً كل شهرين ، فقلت في نفسي: وجدتها وجدتها، وقفزت باتجاه أخي الأسير من فرحتي معانقاً ومُقبّلاً له لأنه أشار عليّ بهذه الفكرة الرائعة، وبعدها أخذت بإعداد الإجراءات المطلوبة للترتيب لتلك الزيارة عن طريق ممثل القسم، ولم أُخبر والدتي أو أحداً من أفراد عائلتي كي أجعل ذلك مفاجأة لها لم تتوقعها، وكي أُدخل عليها شيئاً من الفرح والسرور، ولكي أُخرجها من جو الحزن على فقدان والدي (رحمه الله)، والحمد لله الذي يسّر الله لي الأمور، وحصلت على تصريح بزيارة مفتوحة لخمسة أشخاص من العائلة، والخبر الأجمل أن سُمِحَ لي أيضاً بالتصوير ثلاث صور مع والدتي ففرحت وسررت جداً على صعيدي الشخصي وأخذت أنتظر موعد الزيارة على أحر من الجمر، فبعد التجربة الأولى في الزيارة المفتوحة مع والدي (رحمه الله) أصبح لدي معرفة بأجواءزيارة كهذه، فأخذت أعدُّ نفسي لذلك اللقاء.

وفي ليلة الزيارة وضعت رأسي على وسادتي فأبت عيناي أن تُغمضا، وأخذت الأفكار تأخذني يمنةً ويسرةً وتدور في عقلي كما تدور الكواكب والنجوم في أفلاكها، وأخذ عقلي يخاطب فؤادي ووجداني: يا هل ترى كيف ستكون الزيارة غداً؟ وكيف ستكون ردة فعل أمي الحنونة؟ وكيف ستكون ردة فعلي أنا؟ وكيف ستكون ردة فعل إخوتي

وأخواتي الذين سيأتون لزيارتي؟ وكيف ستكون فرحة أمي؟ وكيف... وكيف... أسئلة كثيرة لم أعرف لها إجابة، لكنني أخذت أتخيل أجواء من الفرح والسرور عند معانقتي لأمي، وتقبيل يديها وقدميها ورأسها، وهي مبتسمة غير مصدقة أنني واقف أمامها دون حاجز يفصل بيننا، وتخيلت كيف سيكون شعورها وردة فعلها، وأنا على يقين أن دموعها ودموعي ستسيل على وجنتينا بل ستنهمر، لكن هذه المرة ستكون دموع الفرح واللُّقيا... دموع السعادة والشوق والحنين... دموع سأسمح لها أن تسيل وتتساقط كما تتساقط حبات المطر، على النقيض من تلك الزيارة التي كانت مع والدي (رحمه الله) عندما قطعت عهداً على نفسي بألا أسمح لدمعةٍ أن تنزل من عيني مهما كان الموقف صعباً كي لا أُحزن والديّ، لكن هذه المرة فشتّان...، وكما حرمني السجان من التصوير مع والدتي في المرة الأولى عند زيارة والدي (رحمه الله) وسُمح لي بالتصوير معه فقط، شعرت هذه المرة أنني انتصرت على السجان وانتزعت منه التصوير مع والدتي عنوة، والذي سيكون من أجمل المواقف لي معها، ثم أخذت أتخيل كيف سألتقي بإخوتي وأخواتي الذين سيأتون للزيارة، وكيف سأعانقهم وأُقبّلهم لأول مرّة بعد عشر سنوات من الاعتقال، يا الله ما أجمل حكمتك! يا الله ما أوسع رزقك! يا الله ما أرحمك بعبادك! يا الله يا مُقدّر الفرح والسرور رغم الألم!

من وسط المحنة والألم وأشد المعاناة نصنع الفرح والسرور والسعادة ولو بشق تمرة، هكذا نحن أبناء فلسطين الحبيبة، يجرّعنا الاحتلال كل يوم أشد الألم والمعاناة، إلا أننا رغم ذلك نصنع الفرح والأمل من تحت الأرض ومن بين الصخور متحدّين كل الصعاب، فإن لم يكن لنا إلا الاتكال على الله أولاً ثم الأمل نحو حياة فضلى، فلن نستطيع هزيمة هذا المحتل الغاصب لأرضنا، وتحرير وطننا فلسطين من بين يديه، هذا هو طريقنا ولا مفر لنا إلا بذلك، فالحمد لله على هذه الحال وعلى كل حال، وجمعنا الله بأهالينا وعائلاتنا وأبنائنا وقد تحررت فلسطين والقدس والأقصى (ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريبا).

وجاء يوم اللقاء... جاء اليوم الموعود... جاء يوم الفرح والسرور، جاء يوم من أيام الله... جاء يوم البرّ بالأم التي تكون الجنة تحت أقدامها، فبعد أن رحل الليل وجاء الصباح، وسطعت الشمس بأشعتها معلنةً بدء يوم جديد، نهضت من فراشي لأجهز نفسي لهذا اللقاء العظيم، لقاء التحرر من القيد ولو لزمن قليل لا يتعدى (٤٥

دقيقة) لكنه نوع من الانتصار على القيد والسجان، فجهزت نفسي وكوَيتُ بدلة السجن وتعطرت بالعطر المتوفر لدينا لأخرج بأبهى وأجمل صورة وبأحلى العطور، وأنا أنتظر بغرفتي روحةً وجيئةً متوتر الأعصاب أنتظر على أحرّ من الجمر لقياك يا أمي يا مهجة قلبي وروحي، وفجأة تذكرت لحظات الانتظار في الزيارة السابقة وتذكرت أن هذه المرة لن أرى فيها والدي (رحمه الله) ولن ألمسه، فذرفت عيناي دمعاً ولكن سرعان ما قبضت دمعي رغماً عن عيني، وبينما أنا على هذه الحال فإذا بالسجان ينادي باسمي، معلناً الانطلاق نحو الزيارة، فتح باب الغرفة وخرجت مسرعاً بصحبة بعض الأسرى ممن لديهم زيارة، فاقتاد السجان الأسرى الذين بصحبتي إلى غرفة الزيارة العادية، أما أنا فأخذني إلى غرفة الزيارة المفتوحة، دخلت وأخذت أنتظر قدوم أمي وإخوتي، ولغاية هذه اللحظة لا علم لوالدتي ولا إخوتي بهذه الزيارة المفتوحة، فذهب السجان منادياً على اسم والدتي ومن حضر معها من إخوتي وأخواتي، وأدخلهم بوابة السجن متفاجئين متسائلين: إلى أين يأخذنا السجان!! لماذا لم يُدخلنا إلى غرفة الزيارة مع بقية عائلات الأسرى الذين دخلوا إليها!! فسألت أمي السجان: إلى أين تأخذنا؟ فقال لها: انتظري قليلاً، وستعرفين، وما هي إلا لحظات قليلة حتى فتح لهم السجان باب الغرفة التي أنا فيها فرأوني أمامهم دون حاجز يفصل بيننا، فكانت المفاجأة والصدمة لهم حيث لم يتوقعوا ذلك مطلقاً، فرأيت ابتسامة وضحكة أمي الغالية التي لم أر مثلها منذ عشر سنوات من اعتقالي، وقد تغيّر حالها وبدت الفرحة على ملامح وجهها وشكلها فانقضّيت عليها مسرعاً مقبّلاً وجنتيها ورأسها، وعانقتني عناقاً لا أنساه ما حييت وسأبقى أذكره مدى العمر، واختلطت دموعي بدموعها التي سالت على وجنتينا، لكنها هذه المرة دموع الفرح والسعادة والسرور بهذه اللُقيا التي لم تتوقعها أمي الغالية، وانقضّ عليّ إخوتي وأخواتي الذين جاءوا للزيارة غير مصدقين لما يحصل، فكانت من أجمل اللقاءات والمفاجآت، فلك الحمد ولك الشكر يا الله أن يسّرت لنا هذا اللقاء الأجمل لنا جميعاً، وبعد العناق الطويل جلسنا كلٌ على مقعده، وأمي وإخوتي وأخواتي غير مصدقين أني معهم وجالس بينهم، فأخذت أمي الحنونة -رضي الله عنها وأرضاها - تسألني أن كيف حصل هذا؟ وكيف استطعت عمل هذه الزيارة المفتوحة والجميلة؟ وكيف فعلت لنا هذه المفاجأة الرائعة؟ وكيف أني لم أخبرهم بها؟ أسئلة كثيرة صبّتها عليّ أمي الغالية رزمةً واحدة، هذا عدا عن أسئلة إخوتي وأخواتي، ولغاية تلك اللحظة لم أخبرها أنني

استطعت الحصول أيضاً على تصريح بالتصوير معها، لأنني خططت أن يكون ذلك مفاجأة أخرى في آخر الزيارة، وأخذنا نتسامر في الزيارة عن هذه المفاجأة الجميلة، وعن أحوال الوالدة وباقي العائلة، وعن أحوالي بشكل عام، واستطعت من خلال هذه الزيارة أن أرسم بسمة وفرحة وسعادة على وجه أمي الحنونة، وإخراجها من ملامح الحزن والألم على فراق والدي (رحمه الله)، وهذا أيضاً انعكس على أحوال إخوتي وأخواتي في الزيارة، وكانت من أجمل الزيارات منذ عشر سنوات لأخي الصغير طارق الذي كان يبلغ من العمر حينها إحدى عشرة سنة، كان يمسك بلحيتي، وأُختي تمسك بيدي وأنا أتحدث مع أمي وأُختي، كل ذلك في آن واحد، بكل الحواس والشعور الجميل، وقلت لأمي العزيزة: إنه رغم الأسى والألم والحزن والمعاناة، إلا أنه يجب علينا أن نجد ولو للحظة فرصة للفرح، وأننا لن نسمح للاحتلال ولا للسجان أن يمنعنا من الفرح والسعادة والأمل الجميل، وكانت أمي تنصت لكلماتي بتعجب، فقالت لي: من أين لك كل هذه القوة والمعنويات والتحدي؟ فقلت لها: من كان مع الله «عز وجل» فلا يبالي، وإن الله لا محالة ناصرنا، وحتى لو كنت ليس فقط في السجن بل في سابع أرض، لأننا أصحاب حق، وصاحب الحق لا يخاف إلا من الله «سبحانه»، ودائماً يكون هو الأقوى وفي النهاية هو الفائز، قَصُرَ الزمن أو طال، وقلت لها أيضاً: أنت تتكلمين عني هكذا وأنا أسألك الأسئلة ذاتها: من أين لك بكل هذه القوة وكل هذا الصبر والثبات والإصرار والتحدي، تتنقلين معي من سجن لآخر من أقصى شمال فلسطين الى أقصى جنوبها؟ وكيف تتحملين مشاق السفر الطويلة في ظل صيف حار وبرد قارس؟ فأنا إن كنت كما وصفتِني فهذا ما هو إلا قليل مما عندك، فأنا آخذ مددي وقوتي وصبري من الله تعالى أولاً، ثم من صبرك وقوتك وثباتك ورباطك، فما أنا إلا نقطة في بحرك، فنظرت إليّ بنظرة فخر وعز وكأني أهوّن عليها وأُساندها، بل وكأني رفيق دربها.

كنتُ مُصراً في داخلي ألا تخرج والدتي الطيبة والحنونة من هذا اللقاء، إلا أن تبدأ مرحلة جديدة، وأن أُبعدها عن الحزن بسبب وفاة والدي (رحمه الله) قدر المستطاع، لأكون معها في هذه المسيرة الشاقة كسند يخفف عنها ويكون بجانبها، والحمد لله نجحت إلى حد كبير بذلك، ولا زالت هذه الأم العظيمة رفيقة دربي... درب الألم والمعاناة... درب العزة والكرامة... درب الصبر والثبات والصمود والتحدي.

شارفت الزيارة على الانتهاء، ولم أخبر بعد والدتي بمفاجأة التصوير، وعند انتهاء موعد الزيارة أتى السجان وطلب من إخوتي وأخواتي البقاء في غرفة الزيارة، وطلبني أنا وأمي الغالية، فاستغربت أمي من ذلك، فقالت لي: إلى أين سيأخذوننا، فقلت لها: هناك مفاجأة أخرى ستشاهدينها الآن، وما أن خرجت من الغرفة حتى بشّرتها بأننا سنتصور معاً الآن ثلاث صور، فلم تصدق ذلك، فقلت لها: هذه المفاجأة الثانية التي أخفيتها عنك لأُدخل على قلبك وروحك مزيداً من الفرح والسرور، ولأعوضك بدل التصوير الذي تم رفضه عندما تصورت مع أبي (رحمه الله) ولم يسمحوا لك بذلك آنذاك، فها أنا ذا الآن، عملت على أن يكون مع الزيارة المفتوحة أيضاً تصوير، ففرحت أمي كثيراً وعانقتني، وبعد الانتهاء من التصوير قبّلت يديها ورأسها وودعتها على أمل اللقاء القريب.

لقد كانت هذه الزيارة من أجمل الزيارات التي زرتها منذ عشر سنوات، حيث كانت كلها فرحاً وسروراً وسعادة، رغم الألم والمعاناة ولوعة الفراق، فرح وسرور لوالدتي الحنونة الغالية ولإخوتي وأخواتي، وفرح لي شخصياً، فعندما عدت إلى غرفتي أخذت أراجع شريط ومشاهد هذه الزيارة، فوجدت أجمل ما فيها أنني استطعت أن أُخرج والدتي الغالية من حالة الحزن على فقدان والدي (رحمه الله) وإدخال الفرح والسرور على قلبها، كي تستطيع الصبر والثبات والمضيّ بالمسيرة رغم ألمها وعذاباتها، فلك الحمد والشكر يا الله على هذه الحال، وعلى كل حال دائماً وأبداً. (مكان الصور الثلاث مع والدتي).

الذكرى السنوية الأولى لرحيل والدي (رحمه الله)

تجري السنون وتستمر المسيرة بوجعها ومعاناتها وعذاباتها، لكن رغم هذه السنين والألم لا ينسى الإنسان أحبته ممن فقدهم على الطريق، فنحن جميعاً مجتمع الأسرى في مقابر الأحياء، عبارة عن شريحة من مجتمعنا بكل أطيافها، لكنها مقيدة داخل الأسوار والجدران والأسلاك الشائكة، نتجرع الألم والمعاناة أكثر ممن يعيشون خارج هذه الأسوار والقضبان من أقرب الناس إلينا، من أُولئك الذين نعيش على ذكراهم دائماً.

ففي يوم (٢٠٠٦/٤/١٩) توافق الذكرى السنوية الأولى لوفاة والدي (رحمه الله)، ورغم أنه لم يغب عن بالي طوال الفترة الماضية، إلا أن الذكرى تُشعل القلوب، وتعود بالذاكرة إلى الماضي مستحضرةً أحبابنا وأعزاءنا الذين كانوا بيننا، وقدَّر الله «عز وجل» لهم الانتقال إلى الدار الآخرة، لكننا سنبقى نتذكرهم دائماً وكأنهم بيننا، نتذكر مآثرهم وأفضالهم علينا، فكيف بنا نحن الأسرى، ونحن لا نستطيع نسيان أحدٍ منهم، بل نحن نحيا على ذكراهم وندعو لهم دائماً بأن يرحمهم الله ويسكنهم فسيح جناته، وقد قمت في هذه الذكرى الأولى على رحيل أبي المبجل بعمل وليمة لكل الأسرى القابعين معي في القسم عن روحه وللدعاء له، هذا داخل السجن،

أما عن والدتي الغالية فهي كذلك مرّت عليها هذه الذكرى السنوية الأولى بحسرة وألم ولوعة، فقامت بعمل وليمة عن روحه (رحمه الله) للعائلة ولأصحاب النصيب، هكذا تمرُّ علينا ذكرى من نحب، نتذكرهم ولا ننساهم، فهم في القلب والوجدان دائماً، نحيا على مآثرهم، ونكمل المشوار والمسيرة من بعدهم، نتأسى بهم وبأخلاقهم، ونقتدي بهم في كل خير، فرحمك الله يا أبي يا روحي ووجداني، يا من ضحّيت وعانيت وتألمت بسبب الاحتلال الغاصب، وعلى فراق ولدك وخوض المسيرة الشاقة معه بكل أشكالها وعذاباتها، لكن واجهت هذه الآلام والمعاناة بكل صبر وثبات ورباط وتحدٍ، ونحن صامدون ثابتون سائرون على نهج رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى درب تحرير أرضنا ووطننا من أيدي هذا المحتل الغاصب، الذي بسببه تعرضنا ولازلنا نتعرض لأشد أنواع القهر والألم والمعاناة، لكن يبقى أمامنا وعد الله لنا بدحر هذا الاحتلال، والأمل المنشود بانتظار ذلك اليوم الفاصل.

العودة إلى الجنوب... وبصيص أمل جديد في النفق

أما المشهد الثالث من الحكاية فكان عندما تم نقلي إلى سجن إيشل في مدينة بئر السبع جنوب فلسطين، والذي يبعد عن مدينة القدس مدة ساعتين ونصف، وكان ذلك في شهر (٢٠٠٦/٩)، مع الإشارة هنا إلى أن إدارة مصلحة السجون تقوم بنقل الأسرى من سجن لآخر كل مدة من الزمن من أجل عدم استقرار الأسير من جانب، ومن أجل استهداف الأسير وعائلته من جانب آخر، وهذا ما يسبب تعباً ومعاناة وعدم استقرار للأسير نفسه، ويسبب أيضاً أشد المعاناة لذوي الأسير، متنقلين من أقصى شمال فلسطين إلى أقصى جنوبها، هذا عدا عن شكل العذابات والمعاناة للأسير وعائلته في السجن نفسه، فكل سجن له شروطه ومبناه الخاص، فعلى سبيل المثال في سجن إيشل مبنى السجن مكون من ثلاثة طوابق، وكل طابق هو قسم يتسع ل (١٨٠) أسيراً، وشروط الحياة اليومية فيها معاناة ليست بالبسيطة، لكن الأسير يستطيع التحمل والتعامل مع ذلك رغم المعاناة، أما الأهم من ذلك فهو معاناة الأهل أنفسهم.

ففي زيارة والدتي الأولى في هذا السجن وعندما دخلنا غرفة الزيارة وجلستُ معها، كان العرق يتصبب من وجهها، وعلامات الإرهاق والتعب واضحة كذلك، فسألتها: ما الأمر؟ ولماذا أنت متعبة بهذا الشكل كما باقي عائلات الأسرى في غرفة الزيارة؟ في البداية لم تكن والدتي الغالية تريد إخباري كي لا أتضايق أو أفعل شيئاً ضد السجان كردة فعل على ذلك، لكن مع إصراري بأن أعرف ما حصل قالت لي: هذا السجن يختلف عن باقي السجون التي كنت فيها، فنحن عندما نصل لبوابة السجن ونسلّم بطاقات الهوية ننتظر تحت أشعة الشمس الحارقة فترة ليست بالبسيطة من الزمن، وبعد ذلك يتم فحصنا وتفتيشنا بشكل دقيق، ومن ثم يتم السماح لنا بالدخول، فبعد المعاناة الأولى من الانتظار تحت الشمس الحارقة أو في البرد الشديد، ومن ثم الفحص، تأتي معاناة جديدة للأهل بعد هذه المرحلة، حيث يتم اقتيادهم إلى مبنى السجن الداخلي وهم يسيرون على الأقدام على الطريق المؤدية إلى مبنى الزيارة، والأدهى من ذلك وهو ما فاجأني، عندما سمعت بأنهم بعد هذه المسافة يدخلون إلى نفق تحت الأرض مسافة مائة متر حتى يصلوا إلى غرفة الزيارة، حينها فهمت لماذا كانت أمي الغالية تتصبب عرقاً، وملامح الإرهاق بادية على وجهها، فالأهالي من بوابة السجن الرئيسة حتى غرفة الزيارة، يسيرون مسافة أكثر من (١٥٠م).

عندما علمت بذلك ضربت على رأسي، أيُّ معاناة وعذاب وألم تتعرض له أمي وكذلك باقي أهالي الأسرى، فتألمت جداً لذلك، لكن ماذا عليّ أن أقول في هذا المقام إلا أن هذا هو الاحتلال، وهذا هو السجان، يقومون دائماً بالتفنن في إيذاءنا وأهلنا، كي يعاني ويتألم الفلسطيني عامة، والأسير وأهله خاصة، وهذا شيء أو صورة مقتضبة عن معاناة الأهل داخل السجون عند زيارة أبنائهم.

وبينما أنا في سجن إيشل وتحديداً في (٢٠٠٦/٦/٢٥)، أرسل الله "عز وجل" لنا بصيص أمل جديداً في هذا النفق المعتم ، وهي بشرى من نوع آخر وشكل آخر، وفرحة خاصة لم نكن تتوقعها بهذا الشكل، وذلك عندما تم الإعلان من قبل كتائب الشهيد عز الدين القسام عبر شاشات التلفاز ومحطات الراديو عن نبأ أسر جندي إسرائيلي اسمه (جلعاد شاليط) في عملية عسكرية معقدة نفذّها جنود القسام على حدود قطاع غزة في معسكر للجيش الإسرائيلي، وأن هناك قتلى وجرحى وأسراً في صفوف جنود الاحتلال الإسرائيلي، وما أن سمع الأسرى هذا الخبر، حتى عَلَت الحناجر بالتكبير بمشهد لم أر مثله من قبل، لدرجة أن إدارة السجن أعلنت حالة الاستنفار داخل السجن، وجراء هذا التكبير والفرحة الكبيرة على وجوه الأسرى، قامت إدارة السجن بسحب أجهزة التلفاز من غرف الأسرى كعقاب لهم على التكبير والفرحة، فلم يهتم الأسرى لذلك مرددين: فليفعلوا ما يفعلون، فهذا حدث لم يحدث منذ أن احتلت دولة «إسرائيل» الغاضبة والمختلقة فلسطين عام (١٩٤٨)، وقد تمت معاقبتنا عدة أيام، ثم أعادوا لنا ما تمت مصادرته.

وكان خبر هذا الأمر هو حديث الساعة يومياً صباحاً ومساءً، وأصبح الراديو والتلفاز لا يفارقان الأسرى لمتابعة أي تطور جديد في هذا الشأن، وهنا أخذت أفكر بوالدتي الغالية، يا ترى كيف تلقت الخبر؟ وكيف ستكون ردة فعلها؟ وكم ستكون فرحتها؟ وكيف... وكيف...، أسئلة عدة راودتني اتجاه والدتي طبعاً كما كل الأسرى، ليس في سجن إيشل فحسب، بل في كل السجون الإسرائيلية من أقصى شمال فلسطين حتى أقصى جنوبها، وكنت أنتظر زيارة الأهل على أحرّ من الجمر، لأرى ردة فعل والدتي الغالية وشعورها، وعندما جاءت تلك الزيارة ودخل الأهالي إلى غرفة الزيارة، أخذت عدة نسوة من أهالي الأسرى بإطلاق الزغاريد، زغاريد الفرحة والأمل بمشهد رهيب، وأخذت أُمهات الأسرى جميعهن في هذه الزيارة يتنقلن من أسير إلى آخر كي يهنئنه ويبشرنه بالإفراج

القريب، واستمر هذا المشهد لدقائق معدودات، وهدأت الزيارة قليلاً ثم جلست كلٌّ منهن على مقعدها عند ابنها الأسير، وجلست أمي الغالية بمقعدها أمامي والابتسامة والفرح والسعادة والسرور تملأ وجهها، وأخذت تقول لي: هذه المرة تختلف عن كل المرات، والله «سبحانه وتعالى» أرسل لنا فرحة وأملاً من نوع آخر، فقلت لها: نعم هذه المرة تختلف عن كل المرات، وإن شاء الله سيكتب لعدد كبير من الأسرى الفرج، وتحديداً من ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية، واستغرق وقت الزيارة الحديث بهذا الخبر الجميل الرائع، وما أن دق جرس الزيارة معلناً عن انتهائها حتى أخذنا نودع بعضنا بعضاً على أمل اللقاء القريب، وكذلك أمهات الأسرى في الفوج ذاته، يودعننا مرة أُخرى بالزغاريد والتلويح بالأيادي، فخرج الأهالي من غرفة الزيارة عائدين إلى منازلهم، وعدنا نحن الأسرى كلٌ إلى غرفته، وقد امتلأت قلوبنا بالفرح والسرور، على هذا المشهد الرائع والجميل من قبل الأهالي، لكن السجان أبى إلا أن يُنغّص علينا فرحتنا هذه التي لم تَرُق له، بل أغاظته كثيراً، حيث أبلغونا أن كل الأمهات اللاتي كنّ في زيارة هذا اليوم وقُمنَ بالزغاريد سيُمنعن من الزيارة شهرين، فعكّر علينا السجان فرحتنا، ولكن قلنا: فليفعل ما يفعل، تكفينا فرحة أهالينا التي رأيناها، فهي تساوي كل الدنيا وما فيها.

وبعد شهر من عملية أسر الجندي (جلعاد شاليط) على أيدي كتائب القسام على حدود قطاع غزة المحاصر، وتحديداً في (٢٠٠٧/٧/١٢) أرسل الله "عز وجل» لنا أملاً وبشرى جديدة لم نكن نتوقعها في هذا الوقت وبهذه السرعة، حيث تم الإعلان على شاشة التلفاز من قبل «حزب الله» أنهم قد قاموا بأسر جندي إسرائيلي وهو الآن بأيديهم في لبنان، وأن حزب الله يطالب بعملية تبادل أسرى وعلى رأسها الأسير اللبناني سمير القنطار الذي رفضت إسرائيل إطلاق سراحه في صفقة تبادل حزب الله الأولى عام (٢٠٠٤)، وأنه سيطالب أيضاً بإطلاق سراح أسرى فلسطينيين، وما أن سمع الأسرى بهذا الخبر حتى عَلَت أصوات التكبير وملامح الفرح والسرور على وجوههم، داعين المولى "عز وجل" بأن يكتب للأسرى ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية نصيباً من تبادل الأسرى المقبل بالإفراج.

وفي أول زيارة لوالدتي بعد انتهاء عقوبة الشهر، دخلت ومعها أُمهات وآباء الأسرى غرفة الزيارة، والفرح والسرور والسعادة مرتسمة على وجوههم جراء عملية أسر حزب الله للجندي الثاني، لدرجة أن عمليتَي الأسر للجنود الإسرائيليين أخذت جلّ وقت الزيارة، فقالت لي أمي الغالية: لقد أرسل الله «عز وجل» لنا أملاً جديداً، وإن هذه رسائل وبشائر من الله «عز وجل» أن موعد تحرركم والإفراج عنكم بات قريباً، وإن شاء الله ستكون أنت ومن مثلك من ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية وغيرهم مشمولين في هذه الصفقات المنتظرة، وقد تفاعلت والدتي الغالية مع هذه الأخبار بشكل كبير، وأخذت ترسم أحلامها أن بعد أتحرر: سنعمل كذا وسنذهب هنا وهناك، وسنعمل... وسنعمل، فقاطعتها قائلاً لها: على رِسلك... أنتِ تتحدثين وكأن اسمي مضمون في صفقات التبادل هذه، جيد أن يكون عندنا أمل دائماً بالله «سبحانه وتعالى» لكن علينا أن نحفظ خط الرجعة أيضاً في حال لم تتيسر الأمور -لا سمح الله - كما حصل في المرة الأولى في صفقة حزب الله عام (٢٠٠٤) فردت قائلة: الله «عز وجل» لن يخيب آمالنا، هذه المرة الأمور أفضل، فقلت لها: إن شاء الله ييسر الأمور ويصدر لنا الخير، وقالت لي أيضاً: في هذه المرة ستكون الصفقة أفضل من الصفقة الأولى، وإنها متفائلة بالإفراج، خاصة أنه أصبح أمامنا صفقتا تبادل: واحدة مع كتائب القسام، وأُخرى مع حزب الله، وأخذ الأسرى يتداولون القول: إن لم تُصبنا الصفقة الأولى، فستصيبنا الصفقة الثانية بإذنه تعالى، فقد أرسل الله «عز وجل» لنا من عنده أملاً جديداً، وقالت لي والدتي الغالية: عاقبونا بالمنع من الزيارة مدة شهر، فليعاقبوا كما يشاؤون، فلا يهمنا، فما هي إلا فترة قليلة، وستتحررون بإذنه تعالى من هذه السجون الظالم أهلها.

الله «سبحانه وتعالى» يزرع فينا الأمل كأسرى وكعائلات الأسرى؛ كي يصبّرنا ويصبّر أهلنا بالدرجة الأولى، وإن لم يكتب لنا الفرج في تلك الصفقة فسيُكتبه في هذه، وإن لم يُكتب لنا فيها الفرج سيُكتب في التي تليها، وهكذا يبقى الأمل مستمراً فينا، حتى يأتي وعد الله لنا بالفرج يوماً ما، فالحرية لا تقدر بثمن، ونحن على يقين بالله «عز وجل» بأننا سنتحرر من الأسر وسنخرج من مقبرة الأحياء إلى سعة الدنيا، ودائماً الأمل مزروع فينا، والله «عز وجل» يرسل لنا بين الفينة والأُخرى إشارات ورسائل أمل، بأنه سيأتي يوم وستفتح السجون، ويتحرر الأسرى رغم أنف الاحتلال والسجان بإذنه تعالى، وهكذا يبقى الأسرى وعائلاتهم يعيشون على أمل قريب بالإفراج والتحرر من مقابر الأحياء حتى يأتي فرج الله تعالى.

الانتقال إلى أقصى الجنوب وصفقة تبادل حزب الله

بدأت أحداث المشهد الرابع في شهر (٢٠٠٧/٩) حيث تم نقلي إلى سجن رامون الصحراوي والذي يقع أقصى جنوب فلسطين، والذي يبعد عن مدينة القدس مسافة ثلاث ساعات، ويتربع في وسط صحراء النقب الحارقة، مع الإشارة هنا إلى أن سجن رامون بحكم موقعه الجغرافي في وسط الصحراء، تكون درجة حرارته في الصيف مرتفعة جداً وحارقة تصل أحياناً إلى (٤٠°)، وفي فصل الشتاء تكون درجة الحرارة منخفضة جداً وباردة جداً حيث تصل في بعض الأحيان إلى درجة ما تحت الصفر، ويبعد سجن رامون الصحراوي عن الحدود ما يقارب (٨كم)، مع الإشارة أيضاً إلى أن سجن رامون هو حديث البناء مقارنة مع السجون الأخرى، حيث تم الانتهاء من تشييده في نهاية عام (٢٠٠٦)، ويعد هذا السجن أيضاً من أكثر السجون حراسة وشدة في إجراءاته الأمنية، وتصنفه مصلحة السجون من أكثر السجون خطورة وحراسة؛ لأن أغلب الأسرى فيه هم من ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية، وهو أيضاً ملاصق لسجن نفحة الصحراوي.

كانت أول زيارة للأهل فيه في شهر (٢٠٠٧/١٠)، حيث جاءت والدتي الغالية وأخي الصغير طارق، وكان أول سؤال سألته لي والدتي: لماذا تم نقلك إلى هذا السجن؟ هل ثمة إشكال وقع مع إدارة سجن إيشل فتمت معاقبتك بالنقل؟ أم ماذا حصل؟ فقلت لها: على رِسلك يا أمي... لم يبدر أي شيء من طرفي، ولكن وكما تعلمين فإن سياسة النقل من سجن لآخر هي سياسة مدروسة من قبل مصلحة السجون الإسرائيلية من أجل إرهاق الأسير وعائلته، وأنت شاهدة على هذه السياسة الاحتلالية من خلال تنقلي من أقصى شمال فلسطين عندما كنت في جلبوع مروراً بعدة سجون، وصولاً إلى هذا السجن (سجن رامون)، ولن أقول لك يا والدتي الغالية إلا: كان الله في عونك ويجزيك عني خير الجزاء على ما سببت لك من معاناة وعذابات ومشاق التنقل والسفر الطويل، فردّت عليّ قائلة: دعك من هذا الكلام، فوالله لو كنت في آخر الدنيا ما ترددت ولو للحظة في زيارتك، فليفعلوا ما يشاؤون، ولينقلوك كما يريدون، فلم ولن يستطيعوا زعزعة إيماننا وقوتنا وصبرنا وثباتنا مهما فعلوا...

حديثها هذا وقع على قلبي مثل الثلج في ظل درجة الحرارة العالية، فلله درّك يا أمي.. فأي أم أنت... وأي أمهات أنتن يا أمهات الأسرى... أنتن تستحقين لقب خنساوات

فلسطين قولاً وفعلاً، فأنتن من بيت المقدس مسرى رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأكرمنا وأكرمكن الله «عز وجل» بأن نكون نحن رأس الحربة في الدفاع والذود عن أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، ويكفينا وإياكن هذا الشرف العظيم.

كان سجن رامون الصحراوي كما ذكرت تحت وطأة إجراءات أمنية مشددة، سواء على صعيد الأهالي وقت الزيارات، أو حتى على صعيد الإجراءات الأمنية الداخلية المشددة على صعيد الأسرى أنفسهم، حيث كان في تلك الفترة من يأتي اسمه منقولاً إلى هذا السجن، يتضايق وكأنه قادم إلى ساحة معركة من كثرة الإجراءات الأمنية المشددة على الأسرى، والمناوشات التي كانت تحصل ما بين الأسرى وبين إدارة السجن في كل مجريات الأمور الحياتية، أما على صعيد أهالي الأسرى فعند قدومهم إلى زيارة أبنائهم، حدّث ولا حرج، فيبدأ يوم الزيارة من بعد صلاة الفجر عند صعودهم إلى حافلات الصليب الأحمر التي ستقلّهم من مدينة القدس إلى سجن رامون الصحراوي، ثم السفر الطويل لمدة ثلاث ساعات متواصلة إلى صحراء قاحلة، وصولاً إلى بوابة السجن والانتظار الطويل في ظل درجة الحرارة العالية، وتحت أشعة الشمس الحارقة، وفي ظل برد قارس، حتى يتم السماح لهم بالدخول من البوابة الرئيسة، ثم مرحلة التفتيش الدقيق للأهالي قبل وصولهم إلى غرفة الزيارة، حيث المعاناة والانتقام من قبل السجان الحاقد، ثم المرحلة الأخيرة المتمثلة بالدخول إلى غرفة الزيارة، حينها يصلون وهم منهكون من التعب من طول السفر وحرّ الصيف أو برد الشتاء ومشاق الانتظار والتفتيش، ثم رؤية أبنائهم الأسرى لمدة (٤٥ دقيقة)، وعند انتهاء الزيارة وخروجهم تبدأ المعاناة مجدداً من حيث انتهت، فالتفتيش مرة أخرى، ثم الانتظار الطويل، ثم الصعود إلى الحافلات مسافرين مدة ثلاث ساعات حتى وصولهم مدينة القدس، ثم عودة كلٍّ منهم إلى منزله، فهذه هي معاناة أهل الأسير، بل هذا جزء منها، فهم يعانون معنا، وعزاؤنا أنه لن يضيّع الله أجراً لأحد، فمن أجل فلسطين والقدس والأقصى يرخص الغالي والنفيس.

وفي عام (٢٠٠٨) أخذت الأخبار تصل من هنا وهناك عن وجود مفاوضات تدور ما بين حزب الله ودولة الاحتلال الغاصب من أجل تنفيذ عملية صفقة تبادل للأسرى، وهي في مراحل متقدمة، فهاج وماج الأسرى على هذه الأنباء، على أمل أن يكتب الله لعدد منهم الإفراج كما صرّح حسن نصر الله في أحد خطاباته، فكان الترقب والانتظار هو سيّد الموقف، وما هي إلا أشهر حتى تم الإعلان أنه تم التوصل إلى اتفاق لتنفيذ صفقة تبادل

وأنها ستشمل أسرى فلسطينيين، فكان وقع هذا الخبر كأمل جديد للإفراج، وما أن تم الإعلان عن بنود الصفقة حتى شعر الأسرى بفرحة منقوصة، وفي الوقت ذاته بخيبة أمل كبيرة، أما الفرحة فهي الإفراج عن الأسير اللبناني سمير القنطار، وعن خمسة أسرى لبنانيين، وعشرات من الأسرى الفلسطينيين ممن شارفت مدة اعتقالهم على الانتهاء.

فخاب الأمل مجدداً، فهي صفقة لم تكن على مستوى الآمال والتوقعات أو حتى التصريحات، وأخذ الأسرى يعقدون آمالاً جديدة بالله «عز وجل» أولاً، ثم بكتائب القسام التي أسرت الجندي الإسرائيلي (جلعاد شاليط) عام (٢٠٠٦).

وفي أول زيارة للأهل بعد عملية تبادل الأسرى بين حزب الله والكيان الصهيوني الغاصب، ومعرفة الأهل ببنود الصفقة، ساورهم شيء من خيبة الأمل، فقالت لي والدتي الغالية حينها: كنا نتوقع أن يتم الإفراج عن عدد من الأسرى ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية من الأسرى القدامى، لكن قدّر الله وما شاء فعل، لكن بقي أمامنا الأمل الأقوى والأكبر بالله أولاً ثم بكتائب القسام أن تفرج عنكم بصفقة تبادل مشرّفة تعوّضنا عن كل السنوات التي مضت.وفي هذه اللحظة كان مضى على اعتقالي (١٢) سنة، والحمد لله دائماً وأبداً.

بعد إتمام صفقة تبادل حزب الله عام (٢٠٠٨) وخيبة الأمل التي أصابت الأسرى، جاء بصيص أمل جديد في عام (٢٠٠٩) عندما تمت صفقة تبادل صغيرة ما بين كتائب القسام والكيان الصهيوني الغاصب مقابل بث شريط فيديو (لجلعاد شاليط) وهو يتحدث فيه، حيث تم إطلاق سراح (٢٣) من الأخوات الأسيرات، والتي أعطت بشائر وبصيص أمل كبير جداً لدى الأسرى، خاصة أن قضية الأسيرات قضية حساسة جداً، وبعد مشاهدة الفيديو وظهور الجندي الإسرائيلي الأسير (جلعاد شاليط) وهو حي، فإن ذلك نفخ روحاً جديدة في الأسرى وتفاعلاً كبيراً، لأنها كانت المرة الأولى منذ أسره التي يتم فيها الإعلان عن إشارة قوية بهذا الشكل، وعملية إطلاق سراح الأسيرات أعطت إشارة قوية بإمكانية القيام بعملية صفقة تبادل كبيرة ومشرّفة، يُعلّق عليها الأسرى الآمال الكبيرة بعد الله.

وفي زيارة الأهل التي تلت إطلاق سراح الأسيرات، جاءت الوالدة الغالية مسرورة وفرحة جداً وقالت لي: ها هي بشائر النصر والفرح قد بدأت، والأمور ممتازة، وجهّز نفسك أنت والأسرى بفرج قريب بإذنه تعالى، وأخذت مرة ترسم الأحلام عمّا ستفعل

لي؟ وإلى أين سنذهب؟ ومن سيأتي؟ وغيرها من الأحلام لدرجة أنها كانت على يقين بأن الإفراج عني لا محالة قادم بعون الله وأمره.

وفي سياق آخر بعيداً عن سياق صفقات التبادل وتحديداً في عام (٢٠٠٩) قام عدد من أمهات الأسرى المقدسيات بالإعداد للسفر إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك العمرة، وكانت أمي الغالية من بين المدعوّات لهذه الرحلة المباركة، فترددت والدتي بالذهاب ووصلني خبر بما حصل فتضايقت جداً لذلك، فانتظرت الزيارة لأعلم ما الخبر، فلما جاءت والدتي لزيارتي، وبعد السلام والترحيب بادرتها بأول سؤال: ما قصة العمرة وخبر ترددك بالذهاب إلى بيت الله الحرام، فقالت لي: والله أنا أريد الذهاب لأداء العمرة، وخاصة أني لم أعتمر من قبل، لكن ترددي كان بسبب أن يوم السفر سيكون يوم زيارتك، وليس بمقدوري ألا آتي لزيارتك، مهما كانت الأسباب، فجُنّ جنوني وقلت لها: ألهذا السبب فقط ترددت؟ فقالت: نعم، فإن سافرتُ أنا فمن سيجلب لك الملابس؟ ومن سيجلب لك حاجاتك؟ كيف أذهب وأتركك؟ ومن... وكيف... إلخ، فقاطعتها قائلاً لها: إن ترددك هذا أحزنني جداً، وإن لم تذهبي لأداء مناسك العمرة مع أمهات الأسرى، فسأتضايق جداً، فأنا منذ زمن أخطط أن أقنعك أن تذهبي للعمرة، ومن ثم فإنها أمنيتي أيضاً أن أُخرجك إلى أداء مناسك الحج، وشرطي الوحيد أن تكون تكلفة العمرة أو الحج على نفقتي الخاصة، وليس على نفقة أيّ أحد من إخوتي، وضغطت عليها كثيراً طوال الزيارة حتى أقنعتها بالسفر لرحلة العمرة مع باقي أمهات الأسرى المقدسيات، والحمد لله سافرت بسلام، وأدت المناسك بكل فرح وسرور وعادت قريرة القلب والروح، وعند زيارتها لي بعد أداء مناسك العمرة أخذت تقصّ عليّ عن رحلتها، وماذا فعلت، وأين ذهبت، وبصحبة من... (كل تفاصيل الرحلة)، وأتت إليّ بعدد من الصور في الديار المقدسة، وكانت من أجمل الصور، وقلت لها: بقي عليّ الآن أن أسعى لك بحجَّة إلى بيت الله الحرام، وبأن تكون كل تكاليفها على نفقتي الخاصة.

وما أن انقضت سنة بعد أداء أمي الغالية لمناسك العمرة وتحديداً في عام (٢٠١٠) حتى قدّر الله «سبحانه وتعالى» لوالدتي الغالية وأمهات بعض الأسرى أداء مناسك الحج، حيث أعلنت وزارة الأسرى في رام الله أن كل أسير أمضى (١٢) عاماً فأكثر له مقعد لأحد أفراد عائلته للسفر لأداء مناسك الحج، فسررت لذلك كثيراً، وكأن الله «عز وجل» استجاب لدعائي بأن يقدّر لوالدتي أداء مناسك الحج، وأن أكون أنا السبب في ذلك، وقد

أعددت ذلك الخبر كمفاجأة لها، وعند زيارتها لي أخبرتها بهذه المفاجأة، وفرحت كثيراً لذلك، لكنها عادت للهواجس نفسها: كيف سأسافر وأتركك وحدك؟ كيف سيطاوعني قلبي؟ فقلت لها: أستحلفك بالله ألا تعودي لهذا الكلام تارة أُخرى، وهذه الفرصة لأداء مناسك الحج تأتي مرة واحدة في العمر، وإذا أضعتِ هذه الفرصة فلن تتكرر بسهولة، فضغطّت عليها حتى أقنعتها، وأرسلت معها أن تبرق السلام لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بالنيابة عني، وتدعو لي الله عند مقامه، بأن يفرّج عني وعن جميع الأسرى، وبأن يكتب الله لي حجّة لبيته الحرام، فإني أتمنى أن يرزقني الله «عز وجل» حجّة في يوم ما، فأتى يوم السفر والحمد لله، سافرت وأدت مناسك الحج بصحبة أخي الأكبر محمود على أكمل وجه، وكانت بالنسبة لها من أجمل الأوقات والفرحات التي لم تفرح مثلها من قبل، وبعد رجوعها من السفر وزيارتها لي، أخذت تقصّ عليّ ما حدث معها؟ وبمن التقت؟ وأن رحلة الحج أجمل بكثير من مواقف وصور العمرة؛ بسبب المظهر الرائع والأعداد الهائلة، وأن الإقامة هناك كانت في الفندق الملكي كتقدير وتكريم لأمهات الأسرى، وقد جلبت بعضاً من صور هذه الرحلة المباركة وسررت بها كثيراً، وقلت لها والفرحة تغمرني: الحمد لله يا أمي، كنت أتمنى أن أُخرجك للعمرة، والحمد لله تحققت، وكنت أتمنى أن أُخرجك إلى الحج والحمد لله تحقق أيضاً، فلك الحمد ولك الشكر يارب أن يسّرت لها ذلك، وبأن جعلتني أنا السبب في تحقيق هذا الأمر بعد توفيق منك يا الله، وعلى نفقتي الخاصة، فهذا جزء يسير ويسير جداً من حقك عليّ يا أعظم أم في الدنيا، فقالت لي بقلب صادق: الله يرضى عليك يا أكرم مثل ما فرّحت قلبي، والله يرزقك العمرة والحجة مثل ما كنت السبب لي في ذلك، كلمات قليلة في عددها، لكنها كبيرة جداً في معناها وأثرها، فأنا أحرص كل الحرص دائماً على بر الوالدين وعلى رضاهما عني، لأن رضاهما من رضا الله «عز وجل» فتقبل الله منك يا والدتي الحنونة والغالية، ويسّر لي يوماً ما أن أزور وأحج بيت الله الحرام، وأن ألقي السلام بنفسي عليك يا حبيبي يا رسول الله (عليك وعلى آلك أفضل الصلاة والسلام)، علماً أني قد أُبلغت من أكثر من جهة أن أحبة لي من فلسطين، وآخرين لا أعرفهم وحتى من خارج فلسطين ممن عرفوا بقصتي، قد قاموا بالنيابة عني بحجة وعمرة أكثر من مرة، لكن أملي بالله «سبحانه» أن يكتبها لي عياناً وحقيقة بنفسي... اللهم آمين.

وفي صورة أخرى من صور تضحيات الأم وخوفها على فلذة كبدها في أشد وأحلك

الظروف، ما حصل في العام (٢٠١٠) نفسه، عندما تم استدعائي الى تحقيق مركز عسقلان بعد مضيّ (١٤) عاماً على اعتقالي، وكنت لا أزال في سجن رامون الصحراوي، وقد عادت ذاكرتي بي للأيام الأولى من اعتقالي، والتي كانت من أحلك الأيام وأصعبها عندي لما عانيته خلال التحقيق.

فقد تفاجأت من هذا الاستدعاء للتحقيق معي بعد هذه السنوات الطويلة، وقبل ذهابي للتحقيق أرسلت خبراً لوالدتي الغالية أنني مطلوب للتحقيق في مركز تحقيق عسقلان القريب من السجن هناك، وأنه في موعد التحقيق ستكون لي زيارة في سجن رامون، وقد خرجت للتحقيق الذي استمر ثلاثة أيام، وبعد الانتهاء أعادوني إلى حيث كنت في سجن رامون، ولما عُدّت أخبرني أحد إخوتي الأسرى أن أمي قد جاءت إلى الزيارة، رغم أننا أرسلنا وأكدنا لها أنك لن تكون موجوداً بسبب استدعائك للتحقيق، وبقيت تنتظر خارج بوابة السجن وهي تبكي، وقد انتهت الزيارة وعادت مع أهالي الزوار الذين جاءت معهم في الحافلة نفسها، وعندما علمت بذلك تضايقت جداً متسائلاً: ما الذي حدا بها أن تأتي للزيارة رغم علمها بأنني لن أكون في السجن ذاك فترة التحقيق؟ فانتظرت قدوم موعد الزيارة على أحر من الجمر لمعرفة السبب، وما أن جاءت ودخلت إلى غرفة الزيارة حتى بادرتها بالسؤال: ما الذي حصل؟ ألم يصلك خبر استدعائي للتحقيق؟ وأني لن أكون موجوداً في السجن في موعد الزيارة؟ فردّت عليّ قائلة: بل وصلني الخبر، فقلت لها: إذن لماذا جئت رغم علمك اليقيني بأنني لن أكون موجوداً في السجن؟ فأجابتني بإجابة عقدت لساني وحرقت قلبي، حيث قالت: عند وصول الخبر لي أخذت بالبكاء، فما هذا التحقيق بعد هذه السنين الطويلة؟ وكم سيستمر التحقيق معك؟ فأصابني القلق عليك، فقررت القدوم للزيارة رغم معرفتي بأنك لن تكون موجوداً في السجن، كي أشاركك المعاناة وأنت في التحقيق، ولأشتم رائحتك في المكان الذي كنت فيه وأنت بعيد عني، فلم أستطيع أن أبقى في المنزل والحسرة والقلق يمزقانني على بُعدك عني، فدمعت عيناي وانفطر قلبي على ما سمعت أُذناي، وأخذت أحدّث نفسي وأنا أنظر إلى وجه أمي المضيء بنور الإيمان قائلاً: أيّ أم عظيمة أنت؟ ماذا عليّ أن أفعل لأرد لك ولو ذرّة من فضلك وتعبك وتضحياتك؟

هذا الموقف هو واحد من مواقف كثيرة من صور التضحية والمعاناة لأمي الحنونة والغالية على مدار مسيرتها الطويلة معي، طوال خمسة وعشرين عاماً في الأسر، وما زالت مستمرة لغاية كتابة هذه السطور، والله «جل في علاه» وحده يعلم متى سيأتي اليوم الذي يَمُنُّ علينا

فيه بالفرج، وينهي معاناتنا كأسرى، ومعاناة أُمهاتنا بشكل خاص على ما يتعرضون له من ألم الفراق على أبنائهم الأسرى، وعلى ما يتعرضون له من معاناة ومكابدة مشاق السفر، متنقلين من سجن لآخر صيفاً وشتاءً من جهة، ومن معاناة ونكد وصلف الاحتلال والسجان من جهة أخرى، فلنا ولك الله يا أمي، ولن يضيع الله «عز وجل» أيضاً تعبك لا في الدنيا ولا في الآخرة، داعياً الله «سبحانه» أن يجمعنا في الدنيا أولاً في خير مكان، وأن يجمعنا في الآخرة بصحبة وشفاعة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وبصحبة الأنبياء والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

صفقة تبادل عام ٢٠١١وانعكاساتها

أما أحداث المشهد الخامس من هذه الحكاية/ فكان مشهداً كبيراً، ومن المشاهد المفصلية في هذه الحكاية، حيث بدأت أحداثه عام (٢٠١١)، وقد كان له الأثر الكبير على صعيدي الشخصي، وعلى العائلة بشكل عام، وكان الألم على صعيد والدتي الغالية بشكل خاص.

وكان هذا الأمل الأخير هو ما تبقى في الجعبة حتى ذلك التاريخ، وقد عقد عليه الأسرى الأمل الكبير بعد توفيق الله «عز وجل»، وكذلك علّقت عائلات الأسرى بمن فيهم أمي الغالية آمالاً كبيرة جداً، في أن تتم صفقة تبادل مشرّفة لم تحصل من قبل، وذلك بناء على الإشارات التي كانت تصلنا من هنا وهناك.

لقد استمر التفاوض من أجل إبرام صفقة تبادل للأسرى بين كتائب القسام وبين الكيان الصهيوني الغاصب مدة خمس سنوات، وكانت أخبار سير هذه المفاوضات تصلنا تباعاً، وكانت كلما تمضي سنة منذ عام (٢٠٠٦) ها هي قد اقتربت الصفقة بثلاثة شهور عندما تواترت الأخبار أن هناك تقدم كبير في المفاوضات، وقبل تنفيذ الصفقة ب (٢٧) يوماً وصلتنا أخبار مؤكدة أنه في أي لحظة سيتم التوصل لإبرام صفقة التبادل، وأنه حدثت انفراجة واختراق كبير خصوصاً في ملف أسرى مدينة القدس الذي كان عليه (فيتو) طوال السنوات الماضية من قبل الإحتلال الإسرائيلي، لكن تم الاعتراض على ثلاثة أسرى من القدس من قبل الكيان الصهيوني ولن يطلق سراحهم، وعندما بلغني هذا الخبر وفكرت فيه خمّنتُ بأنني أحد هؤلاء الثلاثة، كيف جاءني هذا الشعور ومن أين؟ لا أعلم، وطوال هذه الفترة كانت والدتي الغالية تراقب ما يحدث عن كثب من خلال الأخبار وكانت متفاعلة جداً.

ففي إحدى زيارات الأهل قالت لي والدتي: هذه المرة تختلف عن كل المرات، والكلام يدور عن إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى وتحديداً من ذوي الأحكام المؤبدة والأحكام العالية، وإن شاء الله قريباً ستكون بيننا، ومن شدة تفاعلها مع هذا الأمر أشفقت عليها قائلاً: يا والدتي الغالية، تريّثي قليلاً وربنا «سبحانه وتعالى» لن يضيّع تعب أحد، وكل شيء يأتي في وقته، لكنها أبت وكانت على يقين بأني سأكون ضمن هذه الصفقة، وظلّت

الوالدة تعيش على هذا الأمل حتى جاء تاريخ (٢٠١١/١٠/١٥) الذي تم فيه الإعلان عبر وسائل الإعلام عن التوصل لتوقيع اتفاق صفقة تبادل أسرى بين كتائب القسام والكيان الصهيوني الغاصب، وما أن سمع الأسرى هذا الخبر التاريخي حتى عمّتهم الفرحة والسعادة بشكل غير مسبوق، لم أشهد له مثيلاً من قبل.

وقد أخذ أغلب الأسرى يهنئون بعضهم بعضاً، خاصة الأسرى القدامى، أما على صعيد العائلة وخاصة والدتي الغالية فكانت فرحتهم لا توصف، وأخذوا يجهّزون البيت وما يلزم؛ استعداداً لاستقبالي، هذا عدا عن كم الاتصالات الهائلة من داخل فلسطين وخارجها التي تلقتها والدتي وباقي العائلة، اتصالات تهنئة بقرب الإفراج عني، فكانت أجواء البيت والعائلة والأقارب والجيران أجواء فرح وسعادة لا توصف، على صعيد والدتي الغالية التي كانت فرحتها حينها لو وُزعت على الكرة الأرضية ما وسعتها، أما على صعيدي الشخصي فكان يساورني شك كبير وكبير جداً بأنني لن أكون من ضمن الأسماء التي سيُفرَج عنها، وقد تحدثت مع بعض إخوتي الأسرى بذلك فقالوا لي: هل وصلك خبر بذلك؟ فقلت لهم: لم تصلني معلومة مؤكدة، لكن شعوري بعدم الإفراج عني جاء بناءً على المعلومة التي وصلتنا بأنه سيتم الإفراج عن كل أسرى القدس باستثناء ثلاثة منهم، بناءً على ذلك كان شعوري كبيراً جداً أنني واحد من هؤلاء الثلاثة فردّوا عليّ قائلين لي: دعك من هذه الأفكار فأنت واحد من الأسرى القدامى، وتنطبق عليك الشروط، رغم ذلك لم أطمئن...

ومضت الأيام حتى تم الإعلان عن خبر التوصل لإبرام صفقة التبادل وقت الظهيرة، وفي نهاية هذا اليوم وصلتنا قائمة أسماء الأسرى المتفق على إطلاق سراحهم من الخارج، والتي شملت (٤٥٠) أسيراً من كل الفصائل، وإلى أي مكان سيذهب كل أسير، لازلت أحتفظ بهذه القائمة الأصلية، وكانت القائمة التي وصلتنا مرتبة حسب الترتيب الهجائي، فأخذت أقرأ هذه القائمة بتأن ودقة باحثاً عن اسمي، حتى رأيت اسم أكرم، وهو أسير من غزة، وليس اسمي أنا، ولم أر اسمي من بينهم، وأكملت بقية القائمة، علّي أجد اسمي بينهم، فأكملت قراءة (٤٥٠) اسماً لكن دون جدوى، فانقبض قلبي، وأخذت أقرأ هذه القائمة مرة أخرى منذ البداية متراً عليها، فأيقنت حينها أني لست مشمولاً ضمن هذه الصفقة، وأن إحساسي وشعوري قد صدقا، فرغم الألم والشعور الإنساني الصعب في تلك اللحظة لي ولجميع الأسرى الذين لم تشملهم الصفقة، إلا أنني في تلك الليلة وفي

صلاة قيام الليل من الثلث الأخير، حمدتُّ الله «عز وجل» وشكرته على هذه الحال وعلى كل حال، وأخذت بالدعاء لله «العلي القدير» وناجيته بالعامية قائلاً: يا رب انت بدك هيك فأنا راضي كل الرضا بقضائك، فأسلمت نفسي وإخوتي الأسرى الذين تبقّوا لك يا الله.

فقد كنت بين خيارين لا ثالث لهما:

الأول: إما أن أُسلّم بأمر الله وقضائه، ونيل رحمته ورضاه والأجر الكبير، والصبر على ما قدّره الله لي حتى يكتب لنا أملاً جديداً من عنده «سبحانه وتعالى».

أما الأمر الثاني: فهو عدم التسليم بما حدث، وأكون بذلك قد حِدّت عن الطريق، فأخذت الخيار الأول، فأنا عندما اخترت طريق الله "عز وجل" وطريق الدعوة والجهاد في سبيله، وفي بداية الطريق قيل لي حينها: إن هذه الطريق صعبة ومليئة بالأشواك والابتلاءات والمحن، فإذا لم تستطع تحمّل ذلك، فعليك التراجع من الآن، خوفاً من السقوط وخسارة حياتك، ثم يأتي الندم بعدها يوم لا ينفع الندم، لكني أصرّرت على هذه الطريق رغم ما فيها من صعاب، وليس ذلك إلا لرضى الله «سبحانه وتعالى» ثم من أجل تحرير فلسطين والقدس والأقصى من أيدي المحتل الغاصب.

فحين جرت الصفقة ولم أكن مشمولاً فيها، تذكرت ذلك اليوم، وقلت في نفسي إنني عاهدت الله «عز وجل» على هذا الطريق، وآن الأوان للتطبيق والفعل بدل القول، والصبر على هذا الامتحان الصعب، وحمدّت الله كثيراً.

وفي اليوم التالي خرجت من غرفتي رقم (٦٢) في قسم ٥ وأخذت أسلم على إخوتي الأسرى الذين شملتهم الصفقة وأُهنئهم، لدرجة أن بعضاً منهم عندما هنأته وعلم أني غير مشمول بهذه الصفقة أخذ بالبكاء الشديد، مع الإشارة هنا إلى أن عدد نزلاء القسم كان (١٢٠) أسيراً، وقد شملت الصفقة منهم (٥٠) أسيراً منهم، فاختلطت الأجواء بين الفرح والحزن، الفرح لكل أخ شمله الإفراج، والحزن على من تبقى منهم ولم تشمله هذه الصفقة، فعاش الأسرى مدة ثلاثة أيام هذه الأجواء حتى تم خروجهم من السجن، وأخذ كل أسير ممن سيفرج عنهم يودع أخاه وهو خارج من القسم والدموع تفيض من عينيه لفراق الأحبة ومن تركهم خلفه، فكانت أجواء ومشاعر مختلطة ومن أصعب وأشد ما مرّ عليّ طوال هذه السنوات، وكنت قد أمضيتُ حينها في الأسر مدة (١٦)

عاماً، وأصبحت أقدم أسير ممن تبقى، وكان الله «سبحانه وتعالى» أبقاني لأكون سبباً في التخفيف عمن بقي في السجن، لأن كل من تبقى كانوا أقل مني سنوات اعتقال، وفعلاً هذا ما حدث، وقول الله «عز وجل» نافذ (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

لكن الأهم من هذا كله الآن هو والدتي المسكينة، فأخذت أفكر فيها، ولغاية هذه اللحظة لم تصلها الأسماء بعد، وظنها بأنني سأكون من المفرج عنهم، وكانت لازالت مستمرة بالاستعدادات والتحضير هي وباقي أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء، يا إلهي: في أي موقف أنا، في موقف لا أُحسد عليه، فمن جانب وضعي وأحوالي داخل الأسر، حيث أُلقيت على عاتقي مسؤولية إدارة ومتابعة من تبقى من إخوتي الأسرى في هذه اللحظات الأصعب في حياتي داخل السجن، ومن جانب آخر خوفي الكبير على والدتي المسكينة عندما يصلها الخبر بأنني لم أُشمل بهذه الصفقة، فكل تفكيري كان عند والدتي، وأخذت أتخيل كل السيناريوهات المحتملة!! فمن يستطيع أو يتجرأ على أن ينقل إليها الخبر؟! كيف ستكون ردة فعها عندما تعلم؟! هل سيحصل كذا؟! أم سيحصل كذا؟! أسئلة وسيناريوهات كثيرة أخذت تدور في فلك عقلي، فوالله إنني كنت في موقف صعب جداً، فماذا أفعل الآن؟ كيف سأوصل لهم الخبر؟ فما كان لي إلا أن تواصلت مع أخي الكبير محمود، فعندما سمع صوتي أخذ يبارك لي بالإفراج وهو يضحك مسروراً جداً، وأمطر عليّ وابل من الأسئلة في آن واحد ودون توقف، متى سيتم الإفراج عنك، وقد أعددنا لك خيمة كبيرة لاستقبالك؟ وأنا أستمع لما يقول، فصُدمت مما قاله، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة، فقلت في نفسي: يا الله إذا كان أخي على هذا الشكل، فكيف سيكون حال أمي وهي غارقة في فرحتها التي لا توصف، فآهٍ ثم آه، ماذا أفعل يا رب؟ وكيف سأخبره؟ فقاطعته بصعوبة كبيرة قائلاً له: على رسلك يا أخي، أنصت إليّ قليلاً ولما سأقوله لك، ثم قلت له: أوقف كل الاستعدادات، فأنا لست مشمولاً بهذه الصفقة، يعني: لست من المفرَج عنهم، فأخذ يضحك ويقول لي: الآن ليس وقت مزاح ومن المؤكد بأنك الآن تمزح. فقلت له: الأمر جِدّي أكثر مما تتصور ولا مزاح في هذا الأمر، فصُعق من سماع ما قلت له، وانهال عليّ مرة أخرى بأسئلة كثيرة: من أخبرك؟ كيف علمت؟ هل أنت متيقن مما تقول؟ فقلت له: إن قائمة أسماء المفرج عنهم بين يديّ الآن، وقد وصلتنا من الخارج قبل وصولها للإعلام والصحافة، والخبر أكيد (١٠٠٪)

فصَمَتَ دون أن تخرج من فمه أي كلمة، فقلت له: ابحث عن طريقة مناسبة تخبر بها والدتي بهذا الخبر الصاعق، فقال لي: أنا لا أستطيع أن أخبرها بخبر كهذا، لأنها ستُصدم، وأخاف أن يصيبها شيء بسبب ذلك... فردُّهُ عليّ زاد الأمر تعقيداً وصعوبة، فقلت له: لا مفر من الأمر، ابحث عن طريقة لإخبار الوالدة، وانتهى الحديث فيما بيننا على هذه الحال، وتعمّدت ألا أتواصل مع أحد من العائلة أو من الأقارب، كي يسمعوا الخبر من غيري وليس مني، كي لا أصعّب الأمور على نفسي أو عليهم، وفي نهاية الأمر تم إخبار والدتي المسكينة بالخبر، فصُدمت لما سمعت صدمة كبيرة ولم تصدق الأمر، وانقلبت الفرحة إلى حزن شديد وألم، وتأثرت أمي كثيراً لما سمعت، وكذلك باقي أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء.

لقد كنت قلقاً وخائفاً جداً على والدتي وعلى ردود فعلها طوال هذه الفترة، حتى جاء موعد الزيارة، وعندما رأيتها كانت علامات الحزن والبكاء والألم واضحة على ملامح وجهها، ولم أدرِ ماذا أفعل كي أخفف عنها وأزيل حزنها، فأخذت أصبّرها، وأُذكّرها بأن الله "عز وجل" قد قدّر لنا قدرنا هذا، وبأن الله «سبحانه وتعالى» لن يضيّعنا، وأن الإفراج لا محالة قادم حتى يأذن الله به، وكما أن الله «عز وجل» أرسل لنا في السابق عدة بارقات أمل، فهو قطعاً سيرسل لنا أملاً جديداً، فأبقِ أملك بالله ولا تحزني يا والدتي، وإن موعد تحرري وإخوتي الأسرى لم يحن بعد، حتى يأذن الله تعالى لنا به في يوم ما...

عندما رأيتُ ملامح وجه أمي المسكينة والمكلومة في تلك الزيارة، رجعت بي الذكريات إلى وفاة والدي (رحمه الله) ولقائي بأُمي في أول زيارة بعد المصاب الجلل، فهي مشابهة تماماً لهذه الزيارة من حيث الحزن والألم ولوعة الفراق، وبذلت كل جهدي حينها كي أخرجها من هذا الجو الحزين عندما فاجأتها بالزيارة دون حاجز، ومن ثم مفاجأة التصوير في سجن جلبوع، والحمد لله حينها استطعت أن أخرجها من جو الحزن ولوعة الفراق والألم، لكن الآن ماذا أفعل؟ وكيف عليّ أن أتصرف؟ فلا يوجد لديّ أي خيارات أقوم بها في هذا السجن ذي الإجراءات الأمنية المشددة، فلم يبق لي سوى وجه الله الكريم بأن يُصبّر والدتي المسكينة ويعوّضها خيراً، فوالله لست أنا فقط من عانى لوعة الفراق والألم والمعاناة داخل السجن طوال هذه السنوات خلال هذه المسيرة الطويلة، فوالدتي الغالية عانت معي مثلي تماماً إن لم يكن أكثر، فأدعو الله العلي القدير أن أتمكن في يوم ما من أن أعوضها ولو بالقليل عن معاناتها وتعبها

وعذاباتها معي طوال هذه السنوات العجاف، بأن يرسل الله «عز وجل» لنا من عنده أملاً جديداً بصفقة تبادل أسرى جديدة يُفرّح بها قلوبنا وقلوب أمهاتنا اللواتي كُسرَت وتهشمت في أكثر من محطة، وأنا على يقين بالله "عز وجل" أن ذلك اليوم سيأتي بإذنه تعالى عاجلاً أم آجلاً، فآهٍ ثم آهٍ يا أمي يا مهجة قلبي وفؤادي، فسامحيني وارضي عني كما ترضين عني دائماً، ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام أسوة حسنة، عندما قال (عليه السلام) لآل ياسر: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، فصبراً يا أمي، فإننا على الحق رغم كيد المحتلين الغاصبين، وصبراً يا أمي إن لقاءنا خارج هذه السجون الظالم أهلها، لا محالة قادم بإذن الله ، صبراً يا أمي فإن الجنة موعدنا إن شاء الله تعالى، ففلسطين نادتنا والقدس نادتنا والأقصى نادانا، ولم نستطع إلا أن نلبي النداء.

الإضراب المفتوح عن الطعام ، ومرحلة التعليم الجامعي

بعد عدة أشهر من انتهاء صفقة تبادل الأسرى استمرت الحال كما كنا عليها من قبل، وأخذنا نحن الأسرى نرتب صفوفنا مع إدارة السجن للسير قدماً لتسيير حياتنا من جديد بعد الصفقة، وكان أولى هذه الأوراق هو الدفاع عن حقوقنا التي تم سحبها من قبل إدارة مصلحة السجون، الذين ظنوا أننا لن تقوم لنا قائمة بعد صفقة التبادل في الوقت القريب، فأخذنا نُعد لخوض معركة الأمعاء الخاوية (الإضراب المفتوح عن الطعام) في السجون كافة، من أجل استرداد هذه الحقوق والمطالب المسلوبة، وقد بدأت معركة الأمعاء الخاوية التي أطلقنا عليها إضراب الكرامة في (٢٠١٢/٤/١)، وقد استمر هذا الإضراب مدة (٢٨) يوماً، وكان من أشد الإضرابات التي خضتها لغاية تلك اللحظة وعانينا فيها معاناة شديدة، وذلك لطول المدة التي لم نضرب مثلها من قبل، ومن شدة الإجراءات التي تم اتخاذها ضد الأسرى المضربين، ومن كثرة التفتيشات، أو من خلال عملية نقل الأسرى المضربين من سجن لآخر كي يرهقوهم، أو من خلال عزل جزء من الأسرى في ظروف صعبة، كل تلك الإجراءات من أجل إجبار الأسرى على فك الإضراب، لكن الذي لم ولن يفهمه السجان أنه مهما قام بإجراءات عقابية لإجبار الأسرى على فك خطوتهم لن يحالفها النجاح، بل على النقيض من ذلك، فكل هذه الإجراءات تزيدنا تحدياً وإصراراً أكثر، حتى نيل مطالبنا الإنسانية المُحقة.

عندما علمتْ والدتي الغالية أننا ذاهبون إلى خوض إضراب عن الطعام، قلقت كثيراً وأخذت تتذكر أحداث إضراب عام (٢٠٠٤) الذي استمر (١٩) يوماً، وآثاره الصعبة على الأسرى، وكيف خسرتُ وزني، والمعاناة التي عانيناها حينها، فأخذت تقول لي: الإضراب صعب وفيه معاناة شديدة وألم، وأنا قلقة عليك وعلى إخوانك الأسرى، فقلت لها: إن خوض هذه المعركة لا مفر منه، وأن لنا حقوقاً ومطالب عند مصلحة السجون، يجب العمل على استعادتها، ولا يمكن ذلك إلا بهذه الطريقة، فحاولت إقناعها بأن لا تقلق، وأن تدعو بأن يوفقنا الله «سبحانه وتعالى»، وأن ينصرنا في هذه المعركة الشرسة، لكن قلب الأم دائما هو سيد القلوب وصاحب المواقف، ونحن الأسرى لا نستخدم هذه الخطوة أو نلجأ إليها إلا مضطرين.

ثمانية وعشرون يوماً دامياً وهي تحترق خوفاً عليّ، وأنا في المقابل أصارع الجوع والألم والمعاناة كما إخوتي الأسرى كي نعيش بكرامة، وبعد انتهاء الإضراب الذي أثمر بفضل الله «عز وجل» بتحقيق أغلب مطالبنا، جاءت والدتي لأول زيارة، وعندما شاهدتني صُعقت من حالي، وما برح الخوف والقلق منها عليّ، فقد كان واضحاً عليّ كما باقي إخوتي الأسرى أننا قد خسرنا من أوزاننا كثيراً، حيث خسرت خلال المعركة من وزني (١٤ كغم) وكان هذا واضحاً عليّ، لذلك كان قلق وخوف والدتي الغالية كبيراً جداً، لدرجة أن دموعها أوشكت أن تسيل على خدّيها، مع الإشارة هنا إلى أنني تعرضت خلال الإضراب لوعكة صحية كبيرة، أدت إلى نقلي ليلاً إلى مستشفى سوروكا الإسرائيلي في مدينة بئر السبع بسيارة الإسعاف لصعوبة الموقف، والذي يبعد عن سجن رامون الصحراوي مدة (٤٥ دقيقة)، وكان ذلك في اليوم (٢٠) من الإضراب لكن الله سلّم وخرجت من هذه الوعكة الصحية بفضل الله وحفظه معافى تماماً من كل مكروه.

وطوال فترة إصابتي كنت أفكر بوالدتي كثيراً وقلقاً عليها، وهي بالأصل كانت قلقة من خوضي لمعركة الإضراب بشكل كبير، فيا ترى، ماذا ستفعل عندما تعلم بما أصابني؟ وكيف ستكون ردة فعلها؟ لكن الحمد لله تجاوزت هذه المحنة على خير، ولغاية كتابة هذه السطور لم تعرف أمي الغالية بما حدث لي، وستعرف فقط لأول مرّة عندما تقرأ هذه الحكاية التي مر عليها تسع سنوات.

قلت لوالدتي في تلك الزيارة: هوّني عليكِ يا أمي ولا تقلقي عليّ، والوزن الذي خسرته سيرجع، وستصبح صحتي كما يجب، والحمد لله فقد وفقنا الله «عز وجل» واسترجعنا أغلب حقوقنا، لكنها بقيت قلقة عليّ، وأخبرتي أيضاً أنه طوال فترة الإضراب كانت تخرج مع باقي أمهات الأسرى إلى خِيَمْ الاعتصام في مدينة القدس للتضامن مع أبنائهم الأسرى المضربين عن الطعام، وكانوا في أغلب الأحيان يضربون معنا، إضافة إلى فعاليات مختلفة لمساندتنا ودعمنا أمام السجان المحتل.

وخلال حديثها أخذتُ أتذكر ما حصل في إضراب عام (٢٠٠٤) عندما سقطت على الأرض وأصيبت بالرضوض وتأذت يدها حينها، فقلقت جداً وبادرتها بالسؤال: هل حصل معك شيء أو تضررت في هذا الإضراب جرّاء تضامنكم معنا، كما حصل معك في إضراب عام (٢٠٠٤)؟ فردت قائلة: الحمد لله لم أتعرض لشيء هذه المرة، لكنْ هناك بعضٌ من

أمهات الأسرى تعرضن لوعكة صحية بسبب امتناعهن عن تناول الطعام، وتم نقلهن إلى المستشفى، لكن أوضاعهن الآن جيدة ولله الحمد.

صحيح أننا عندما نلجأ لهذا الخيار من المقاومة ضد السجان نعاني، وفي بعض الأحيان يتم نقلنا إلى المستشفيات، ولكننا لسنا وحدنا في المعاناة، فأمهاتنا أيضاً يتقطعن ألماً علينا، بل ويتضامنَّ معنا، سواء بالامتناع عن الطعام أو قلب حياتهن رأساً على عقب خوفاً على أبنائهن الأسرى وعلى حياتهم، فكل معاناة نعانيها داخل السجون تنعكس على عائلاتنا، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وفي سياق آخر من تلك السنة (٢٠١٢) أرسل الله «عز وجل» إلينا أملاً جديداً، لكن من نوع آخر، من أجل الاستمرار في تحدي السجان والمضيّ قدماً حتى يقدّر الله «سبحانه وتعالى" لنا الفرج، وكان هذا الأمل هو دخول أول جامعة فلسطينية للسجون الإسرائيلية، وهي جامعة الأقصى التي مقرها في قطاع غزة الحبيب، وهي أول جامعة توافق على إعطاء الأسرى شهادة البكالوريوس الجامعية بالدراسة عن بُعد، وجاء هذا الجهد الجبار من خلال عمل سنوات من قبل صفقة تبادل عام (٢٠١١)، وتم الموافقة على ذلك بعد إتمام صفقة التبادل تلك، وهذا من قدر الله «عز وجل»، وقد يسّرها الله لنا في الوقت المناسب وبعد الانتصار في الإضراب المفتوح عن الطعام، لنستغل كل وقتنا فيها، وكان لدى الأسرى كادر تعليمي، لأن مجتمع الأسرى منوّع، فهو عبارة عن مجتمع مصغّر من مجتمعنا الفلسطيني، ففيه العامل والمتخصص، فيه الفقير والأعلى مستوى، وفيه طلاب من حملة البكالوريوس وكذلك من حملة درجة الماجستير، وفي بعض الأحيان من حملة درجة الدكتوراة،

فمن الطبيعي جداً أن يدير هذا الكادر التعليمي المرحلة التعليمية الجامعية بكفاية، وكنت أحد طلاب الدفعة الأولى على مستوى السجون، حيث تم السماح لنا بسبب خصوصية السجن بدراسة تخصص التاريخ فقط، ولم يكن لنا مناص من ذلك، وبفضل الله «عز وجل» ومنّه علينا، كان جلّ وقتنا فقط في الدراسة، حتى أنهيت الدراسة بنجاح بفضل الله تعالى في بداية عام (٢٠١٥)، وتخرجت دفعتي في سجن رامون التي أطلقنا عليها اسم «دفعة الشهيد ميسرة أبو حمدية» الذي استشهد داخل السجن في عام (٢٠١٣) بسبب إهمال طبي من قبل عيادة السجن، بعدم الاهتمام به، وعدم علاجه بالشكل المطلوب كما هو ديدنهم، حيث ظهرت عنده بداية أعراض سرطان في الحنجرة،

وظل يعاني لمدة تسعة أشهر، ووضعه يزداد سوءاً كل يوم، ولم نكن نحن نعرف ما لديه إلا في وقت متأخر حيث كان قد فات الأوان، بعد أن انتشر السرطان في كل أنحاء جسمه، وقد تم تحويله إلى المستشفى، لكن أخبرونا أن وضعه في المرحلة الأخيرة من حياته، ولا يوجد ما نقدمه له، واستشهد في المستشفى ونحن تتمزق عليه ألماً ولم نستطع تقديم أي شيء له (رحمه الله)، وهكذا أغلب شهداء الحركة الأسيرة، يستشهدون نتيجة إهمال طبي متعمّد وغير ذلك، وكان عمره حينها قد تجاوز الستين عاماً، وهو محكوم بالمؤبد مدى الحياة، وكان (رحمه الله) منذ بداية الدراسة في الجامعة أحد المدرسين الأفذاذ، وفي الوقت نفسه كان طالباً يدرس معنا، بسبب ذلك أطلقنا اسمه على اسم دفعتنا في سجن رامون تيمناً بذكراه العطرة ووفاءً له (الدفعة الأولى_ دفعة الشهيد مسيرة أبو حمدية _ أبو طارق)، وكان لهذا الاسم وقع وأثر على نفوس طلاب هذه الدفعة .

وقد قام أصدقاء لنا في قطاع غزة الحبيب بعمل حفل تخرّج لنا في إحدى القاعات هناك، من باب الدعم المساندة لنا، قد تم تصوير هذا الحفل الطيب، وكل أخ هناك كان يحمل صورة أسير من الذين تخرّجوا، وأرسلوا ذلك التصوير لعائلة كل أسير، ولما وصل الفيديو لوالدتي الغالية لم تصدّق ما رأت وفرحت فرحاً كبيراً، فعلاً كانت بحاجة له وخاصة بعد أن وصلت لها شهادتي الجامعية (بكالوريوس تاريخ معدل ٨٥٪)، ولكي أدخل الفرحة والسرور على قلب والدتي الغالية، أرسلت لها من الخارج (ملابس التخرج) الروب والطاقية المربعة والوشاح الذي كتبت عليه: "أهدي هذا النجاح لوالدتي الغالية» ولا زالت محتفظة به لغاية يومنا هذا".

نحن معشر الأسرى نبحث دائماً عن التقدم والتقدم والتفوق والتحدي ضد السجان، ونتقدم بمسيرتنا التعليمية بكل مستوياتها كأي إنسان، وهذا يُفرحنا جداً، وإننا نعلم علم اليقين أن معركة العلم هي من أهم معارك التحرير.

لذلك كنت أبحث عن كل فرصة تعليمية تتاح لي طوال أسري، لأحقق من خلالها أمرين :

الأول: أنه رغم المعاناة والألم ومحاربة السجان لنا، نقوم بتحديه بالتقدم عن طريق التعليم بكل مستوياته، ابتداءً من مرحلة التوجيهي، وصولاً للدراسات العليا، وهذا ما أكرمني الله "عز وجل" به وكثيراً من أخوتي الأسرى، فقد حصلت على العديد من

الشهادات المختلفة داخل السجن، بدءاً من دراسة التوجيهي في عام (١٩٩٧) ثم البكالوريوس في التاريخ، مع إنجازي لعدد من دورات إدارة الأعمال والتنمية البشرية، واللغات المختلفة، والصحافة التي حصلت فيها كلها على شهادات من وزارة التربية والتعليم، وشهادة في القانون الدولي وحقوق الإنسان من جامعة في النرويج، كل ذلك الإصرار على التعلم والعلم من أجل أن نُعد أنفسنا لذلك اليوم الذي يقدّر الله "عز وجل» لنا فيه التحرر من الأسر، ولنكمل حياتنا ومشوارنا مثل كل إنسان، بل ونتفوق عليه .

والأمر الثاني: كنا نأخذ بعين الاهتمام، بل ونحرص كل الحرص من خلال التعليم وتقدمنا فيه على أن نهدي هذا الإنجاز والتقدم لعائلتنا، تحديداً أمهاتنا، لنُدخل كل فرحة على قلوبهن، وهذا ما حرصت عليه بشكل كبير .

وطالما نحن في هذه المحنة سنستمر في القتال والبحث المستمر عن كل علم وتقدم في المراحل التعليمية المختلفة، ولتحويل هذه المحنة إلى منحة من الله « سبحانه وتعالى»، والحمد لله استطعنا اختراق كثير من المجالات في الجامعات المختلفة.

وفي صورة من صور إدخال الفرحة والسرور والسعادة على قلبي أمي الحنونة والغالية، كنت أبحث دائماً عن أي شيء لأُفرحها، من ضمن هذه الأمور يُسمَح لكل أسير في فترة ما(تم إلغاؤها حالياً) أن يتصور مع والديه فقط مرة كل خمس سنوات ثلاث صور، وصحيح أن الخمس سنوات ليست بالمدة القليلة، لكن والله لو كانت خمس ثوان لما اكتفيت، ولكنها الحال والواقع وظلم السجان، فقمت بعمل الإجراءات المطلوبة مع إدارة السجن، وتمت الموافقة على ذلك كباقي إخوتي الأسرى، فأردت أن أجعلها مفاجأة لوالدتي الغالية، لأُدخل السرور على قلبها، وعندما جاءت للزيارة قلت لها: لقد جهّزت لك مفاجأة وسترينها بعد قليل، فأخذت تسألني: ما هي هذه المفاجأة؟ فمازحتها قائلاً: إذا قلت لك الآن ما هي هذه المفاجأة فلن تكون مفاجأة، أخذنا نضحك على ذلك، وبعد انتهاء موعد الزيارة، طلب مني السجان الانتظار بالغرفة المجاورة من أجل التصوير، وكذلك طلب من والدتي التي يفصل بيني وبينها حاجز من الجهة المقابلة، أن نذهب إلى تلك الغرفة، فسألتني أمي ما الأمر؟ وإلى أين سيأخذونني؟ فقلت لها: لتشاهدي المفاجأة بعينيك، عندما دخلت تلك الغرفة تفاجأت بوجودي فيها، فعانقتني

عناق الأم الحنون، وقبّلت يديها ووجنتيها ورأسها، وكادت الدموع تسيل من عيوننا، وهنا قاطعنا السجان قائلاً: أكرم، لديك عدة دقائق فقط، فقف مع والدتك كي أصوركم الصور الثلاث كي تعود بعدها إلى قِسْمك، وكي أخرج والدتك إلى الخارج، هذا هو صلف السجان الذي لا رحمة فيه، لأي موقف إنساني مثل موقف أم لم تحضن ولدها منذ سنوات، لكن أنّى لهم ذلك، فتصورت الصور الثلاث وبعدها ودّعت أمي المسكينة من خلال هذه اللحظات والدقائق الخمس القليلة معها، وقد ملأتها الحسرة على فراقي، لكنها كانت من اللحظات الجميلة والمؤلمة.

فأي عالمٍ هذا!! وأي محتل غاضب ذلك الذي يُفرّقنا عن أحب الناس إلينا!! وأي مشاعر صعبة ومؤلمة تتعرض لها دائماً!! وإلى متى ستستمر!!! الله وحده هو العليم، ولا اعتراض على حكمك يا أرحم الراحمين .

كانت هذه هي المرة الثالثة التي أشتمّ فيها رائحة أمي، وألمسها بيديّ خلال (١٧) عاماً، ومن شدة سعادة وفرحة والدتي الغالية على لقائها بي والتصور معي، أخذت تُحدث كل شخص تقابله، سواء من أمهات الأسرى، أو من أفراد العائلة، وحتى من الأقارب والجيران والأصدقاء، وقد عادت بعد انتهاء الزيارة إلى المنزل والفرحة لم تسعها، وهكذا وفقني الله «عز وجل» أن أُدخل على قلبها السعادة والفرحة والسرور مجدداً، بعد أن أصابها الألم والحزن بعدم الإفراج عني في صفقة التبادل (صفقة وفاء الأحرار في عام ٢٠١١)، فكنت لا أدخر جهداً، وأبحث عن كل فرصة تتاح لي كي أُدخل الفرحة والسعادة على قلبها دائماً، كي أحاول أن أخفف عنها ولو القليل من تعبها وألمها ومعاناتها طوال مسيرتها الصعبة معي، فحماك الله يا أمي ومهجة قلبي وفؤادي، وثبّتك الله وصبرك، حتى يأتي يوم ما، ونلتقي فيه للأبد، رغم أنف الاحتلال والسجان بإذنه تعالى.

عام (٢٠١٤) - حرب العصف المأكول والأمل المنشود

المشهد السادس من هذه الحكاية بدأت أحداثه في عام (٢٠١٤) عندما اندلعت حرب غادرة على أهلنا في قطاع غزة الحبيب من قبل قوات الإحتلال الإسرائيلي، وقد كانت من أصعب الحروب وأخطرها على أهلنا وشعبنا في غزة، الذين قدموا مئات الشهداء وآلاف الجرحى، عدا آلاف المنازل والمباني والمؤسسات التي دمرت بالكامل، حيث صبّت قوات الإحتلال الإسرائيلي الغادر حقدها من خلال مئات الأطنان من المواد المتفجرة المدمرة، عادلت بمجموعها عشرات أضعاف ما تم إلقاؤه بالقنبلة النووية على مدينة هيروشيما وناكزاكي اليابانيتين، لكن رغم حجم الشهداء والجرحى والدمار إلا أن المقاومة كانت لهذا العدوان بالمرصاد وكبّدته خسائر كبيرة .

مجدداً منَّ علينا كأسرى بأمل جديد، أرسله الله «عز وجل» لنا في وسط هذا النفق المعتم في ظل الحرب الغادرة على قطاع غزة الحبيب، عندما قدّر الله «سبحانه وتعالى» للمجاهدين في كتائب القسام بأسر أحد الجنود الإسرائيليين، لقد تابع الأسرى بقلق كبير مجريات الحرب عبر شاشة التلفاز وإذاعات الراديو، وأثناء هذه المتابعة قطع البث، وإذا بالناطق العسكري لكتائب القسام (أبو عبيدة) يعلن عن قيام مجاهدي كتائب القسام بأسر الجندي (شاؤول آرون)، وما أن سمع الأسرى بهذا الخبر، حتى خرّوا سجداً لله «عز وجل» سجدة شكر، وعمّ التكبير في الأقسام، وكان الوقت بعد صلاة العشاء ونحن في الغرف، وأخذ الأسرى يعانقون بعضهم البعض ويشكرون الله «عز وجل» ويعون لأهلنا وشعبنا في قطاع غزة الحبيب بالسلامة، وأن يكفيهم الله شرّ وحقد الاحتلال الإسرائيلي، فكان هذا الخبر بمثابة أمل جديد وفرحة كبيرة لنا ولعائلاتنا وخاصة أمهاتنا.

وما أن مرّت عدة أيام من تلك الحرب حتى أعلنت كتائب القسام على لسان ناطقها العسكري (أبو عبيدة) أنه قد تم أسر جندي إسرائيلي آخر اسمه (هدار غولدن)، وعندما سماع الأسرى بهذا الخبر، كانت فرحتهم لا توصف، وأخذت حناجر الأسرى تصدح بالتكبير مرة أخرى لدرجة أن إدارة السجن قامت بمعاقبة أحد الأقسام بسحب كل أجهزة التلفاز منه عدة أيام، وذلك من باب تنغيص الفرحة على الأسرى، فهذا ديدنهم، وهذه ليست المرة الأولى، لكن الأسرى لم يهتموا لذلك، وعلقوا آمالهم بعد

الله «عز وجل» على كتائب القسام، خاصة بعدما أعلنوا مراراً وتكراراً عبر وسائل الإعلام المختلفة أنهم سيجبرون الاحتلال الإسرائيلي على عقد صفقة تبادل أسرى جديدة ومشرّفة، أطلقوا عليها (صفقة وفاء الأحرار٢).

وفي أول زيارة لوالدتي الغالية بعد هذه الأخبار، دخلت وكل حالها وحركاتها وتصرفاتها وملامح وجهها تشعّ منها الفرحة والسعادة الكبيرة، كما باقي أمهات الأسرى، وقالت لي: هذه المرة يا أكرم أنا متفائلة جداً، متأكدة أن الله «سبحانه وتعالى» سيكتب لكم التحرر ولن يخيب الله «عز وجل» رجاءنا ورجاءكم، وأخذت أمي الغالية تتحدث و تتحدث، ولم تفسح لي المجال بالحديث من شدة فرحها، فأخذت أنظر إليها بتأمل، وكأن الزمن يعيده نفسه مرة أخرى، لكن رجاءنا بالله لن ينقطع.

وفي سياق آخر من هذه المسيرة الطويلة، فتح الله «عز وجل « علينا آمالاً جديدة في الدراسة في جامعات أخرى غير جامعة الأقصى التي كانت أول جامعة فلسطينية تدخل إلى السجون، حيث قدّر الله «سبحانه وتعالى» بدخول جامعات فلسطينية أخرى لعالم السجون، ومنها جامعة الأمة ومقرها في قطاع غزة، وكذلك جامعة القدس المفتوحة التي يقع مقرها في رام الله، ورغم أنني حصلت على شهادة البكالوريوس في التاريخ من جامعة الأقصى، لم يكن هناك أفق واضح للدراسات العليا، حينها انتهزت هذه الفرحة وقمت بالتسجيل في جامعة القدس المفتوحة تخصص اجتماعيات (٢٠١٥) وتخرجت عام (٢٠١٩) بمعدل ٨١٪، وكانت هذه أول دفعة تم تخريجها من جامعة القدس المفتوحة من داخل السجن، وسررت لذلك جداً بأن أنهيت الدراسة والحصول على شهادة جامعية أخرى، لكن المفاجأة التي فاجأتني أكثر هو ردة فعل والدتي الغالية وذلك عندما أعلنت إدارة جامعة القدس المفتوحة بعمل حق تخرج خاص للأسرى، رغم عمل هذا الحفل في إحدى القاعات الكبيرة في مدينة الخليل، وتم توجيه دعوة لخمسة أفراد لكل عائلة أسير، فحضر من طرفي والدتي الغالية وأُختي وبعض من أقاربي، وقد حضر الحفل أيضاً رئيس الجامعة ووزير التعليم العالي ووزير الأسرى والعديد من الشخصيات الوطنية، وبعد إلقاء الكلمات المختلفة احتفالاً بتخرج الأسرى، جاء دور تسليم الشهادات لكل عائلة أسير، فكان فكان من ينوب عني هو والدتي الغالية، ولما جاء دور والدتي العزيزة صعدت إلى المنصة واستلمت شهادتي من رئيس الجامعة ووزير التربية والتعليم العالي ووزير الأسرى، والتقطت الصور لها وهي تستلم شهادتي وكانت

فرحتها لا توصف، لدرجة أنها أنزلت صورتها وهي تحمل شهادة التخرج على مواقع التواصل الاجتماعي من شدة فرحتها، وتلقت التهاني والتبريكات من العديد من الأهل والاقارب والأصدقاء، قد سررت جداً لفرحتها التي لن أتوقع أن تكون بهذا الحجم .

وعلى صعيد آخر متصل ومن باب إدخال الفرحة والسرور والسعادة على قلب والدتي الحنونة، كنت أعمل وأجهّز الإجراءات اللازمة كي ألتقي بوالدتي وجهاً لوجه دون حاجز ولو لدقائق معدودات، حيث جاء موعد التصوير مع والدتي بعد خمس سنوات عن المرة الأخيرة التي كانت في عام (٢٠١٣) فأردت أن أصنع لها مفاجأة جديدة، ففي عام (٢٠١٨) وفي إحدى الزيارات جاءت والدتي إلى الزيارة كالمعتاد، وقبل انتهاء الزيارة بلحظات نادى السجان على والدتي كي تنتقل إلى الغرفة المجاورة لغرفة الزيارة، وأشار إليّ بيديه أيضاً من خلف الحاجز أن أنتقل إلى الغرفة ذاتها... وما أن دخلت أمي الغرفة، حتى وجدتني واقفاً أمامها، فأقبلت عليها معانقاً ومقبلاً يديها ورأسها، ومن شدة فرحتها لهذه المفاجأة أخذت الدموع تسيل من عينيها، وعانقتني عناق الشوق والحنين، وتصورت معها الصور الثلاث، وبعد التصوير طلب السجان منا الخروج من الغرفة معلناً انتهاء التصوير وانتهاء اللقاء بيننا، فتمسّكت والدتي بيدي وكأنها تريد أن تقول لي: هيا بنا، أريد اصطحابك معي إلى المنزل، لقد طالت بنا المسيرة، فقلت لها: أوكلي أمرك إلى الله «عز وجل» وأوصلتها إلى باب الغرفة كي تعود إلى الحافلة عائدة إلى مدينة القدس، وكان هذا اللقاء الرابع بيني وبين والدتي الغالية والذي أقبّل فيه يدَيها ورأسها وأُعانقتها دون حاجز، وكان قد مضى على اعتقالي حينها (٢٢) عاماً

وفي بداية عام (٢٠١٩) أتيحت لي الفرصة لنيل درجة الماجستير- علوم سياسية- تخصص شؤون إسرائيلية، وهذا غير متوفر إلا في سجن هداريم، فتحدثت مع والدتي الغالية وشاورتها في ذلك، وبأنه يترتب على هذا الاختيار الانتقال إلى سجن هداريم الذي يقع في وسط البلاد، والذي يبعد عن مدينة القدس مسافة (٥٠ دقيقة)، وعندما عَلِمت والدتي بذلك قالت لي: طالما أن ذلك في مصلحتك وفيه تعليم، فإنني أدعو الله أن يُسهّل عليك، ويسهّل طريقك وينجحك في الدراسة.

بالنسبة لي فإن كل خطوة أخطوها داخل السجن مما يتعلق بالأمور العامة، أتشاور أنا ووالدتي بشأنه، فهي شريكتي في هذه المسيرة الطويلة، لذلك يجب أن يكون قراراً مشتركاً بيننا، وبالفعل بعد كلام وتشجيع والدتي الغالية، توكلت على الله «سبحانه

وتعالى» وانتقلت إلى سجن هداريم، وسجلت لدراسة الماجستير وبدأت الدراسة، وكانت كل إجراءات ومعاملات التسجيل قد أصرّت والدتي الغالية - رغم كبر سنّها – على أن تقوم بها بنفسها، دون مساعدة أحد، وكانت الدراسة في جامعة القدس- أبو ديس، وكل فصل دراسي كنت أنتهي ينعكس فرحاً وبهجةً عليها، حيث كانت تتابع معي كل خطوة وكأنها الأستاذ المشرف عليّ، وكان سرورها وفرحتها لذلك كبيرة ولا توصف، وكانت أيضاً تحضر لي الكتب والمراجع التي أحتاجها للدراسة، وتوفر لي كل ما أحتاج إليه من أجل الاستمرار والنجاح في دراسة الماجستير، فرضي الله عنها وأرضاها.

وقد بدأت الدراسة في شهر (٢٠١٩/١) وانتهيت منها في عام (٢٠٢٠/١) لأننا متفرغون داخل السجن، وكنا ندرس دراسة مكثفة، لكن لم يكن بمقدوري استلام الشهادة إلا بعد مرور سنتين من بدء الدراسة حسب نظام التعليم العالي المعمول به في الجامعة، وسيكون استلام الشهادة بإذنه تعالى في شهر (٢٠٢١/١) أي بعد ثلاثة أشهر من كتابة هذه الحكاية.

ووالدتي الغالية تنتظر استلام الشهادة التي ستستلمها بالنيابة عني بفارغ الصبر، وهي تُعد وتجهّز من الآن للابتهاج والاحتفال بها مع الأهل والمحبين.

مسك الختام

اليوم هو يوم الأربعاء الموافق (٢٠٢٠\١٠\١٧) أكتب آخر كلماتي في هذه الحكاية، أكتبها وما زالت رحلتي برفقة والدتي في هذه المسيرة، متواصلة بأملها وحزنها وفرحها وشدتها وتفاصيلها، أكتب وأعلمُ بأنني لم أفِ إلا بالقليل لأمي وأبي وعائلتي، وأني ما أردت من خلال هذه الحكاية إلا برّ والديّ بالدرجة الأولى والأخيرة مستعرضاً جزءاً من مسيرتهم الطويلة معي.

فهذه هي أُمي... التي حملتني وربتني وسهرت وتعبت عليّ الليالي الطوال منذ الصغر، أمي... التي ما تركتني يوماً حتى في الكبر منذ اعتقالي في عام (١٩٩٦) حتى يومنا هذا في عام (٢٠٢٠)، متنقلة معي أينما ذهبت من سجن لآخر، تلك التي كابدت وعانت الألم والقهر والحسرة، وألم الفراق وعذابات ومشاق السفر ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً لساعات طويلة كي تزورني لمدة (٤٥) دقيقة، أمي... التي كبرت في العمر السنة تلو السنة وكبرنا معاً، أمي... التي حرّمت على نفسها كل فرحة وكل نزهة وكل مناسبة كي تبقى بجانبي ولا تتركني، أمي... التي ذرفت شلالات ومحيطاً من الدموع ألماً وحزناً على فراقي على مدار (٢٥) عاماً، أمي... التي سهرت الليل والنهار من أجل أن تلبي احتياجاتي في الأسر، وتدور من مكان إلى مكان من أجل ذلك، أمي... التي أصيبت أكثر من مرة دفاعاً عني وعن قضية الأسرى، ولازالت مستمرة وما استكانت.

أما أبي... آهٍ يا أبي، فهو قدوتي ومهجة قلبي وفؤادي، الذي علمني الكفاح والثبات والرباط ودروس الحياة، أبي... الذي عمل ليل نهار كي لا نحتاج شيئاً وليلبي حاجات أبنائه، أبي... الذي عانى بسببي ما عانى، أبي... الذي نشأت أمام ناظريه منذ كنت طفلاً حتى الكبر السنة تلو السنة، أبي... الذي تحمّل مشاق وآثار اعتقالي، أبي... الذي ترك كل أمر مهما كان مهماً كي لا يغيب عن زيارتي داخل هذا المنفى، أبي... الذي كنت رفيقه القريب وكنت بمثابة عموده الفقري، وقد قطعته في منتصف الطريق بلا رفيق منذ أن تم اعتقالي فكابد ما كابد، أبي... الذي تنقّل معي أيضاً من سجن لآخر شمالاً وجنوباً، صيفاً وشتاءً، حراً وبرداً، ما لان ولا استكان، أبي... الذي شاركني المسيرة منذ اعتقالي في عام (١٩٩٦) حتى وفاته (رحمه الله) في عام (٢٠٠٥)، أبي الذي رحل عن هذه الدنيا جرّاء كيد ولؤم وحقد الاحتلال والسجان ولوعة الفراق.

ألا يستحقان مني أن أتفاخر وأتباهى بهما في كل ملأ؟!.

ألم يقل الله في كتابه العزيز: (وقل لهما قولًا كريمًا، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا).

ورجائي الحار من كل من يقرأ هذه الحكاية أن يدعو لوالديّ بأن يجزيهما الله عني خير الجزاء، وأن يرحمهما في الدنيا والآخرة، وأن يدعو لي ولإخوتي الأسرى بالإفراج والتحرر من هذه السجون الظالم أهلها، وبالانعتاق من هذا النفق المظلم، والذي أسأله تعالى أن تكون نهايته قد اقتربت.

- خمس وعشرون عاما -

عشرون عاماً وضف خمساً بهم كانت ذكرى بِعادي عن الأحباب و الوطنِ
عشرون عاماً وضف خمساً بصرت بهم قهر الصعاب وهول الخوف والحَزَن
عشرون عاماً وضف خمساً ومازالت قضبان سجني تمزقني وتقتلني
عقدان مرّا ونصف العقد ناصرهم مرّوا عجافاً بلا مأوى ولا سكنِ
مرّوا صعاباً ولولا الله لانحصرت نفسي وقِيدت إلى الألحاد والكفنِ
قد شقّ نصفي وغاب البدر مرتحلاً بقيت نصفاً بليلٍ ليس يرحمني
قد غاب عني ضياء لا بديل له من ذا يضيء سواد الليل ذا الجفنِ
شاركت همي يميناً رغم شدتها تسعاً صبرت أيا أبتي ولم تهُنِ
واليوم أمي تقود الركب صابرة ركباً يعجّ بألوانٍ من المحنِ
فالأم تعطي طوال العمر مبسمها في كل حال من الأحوال تسعدني
الصيف يصرف أمي والخريف كذا شتاء سجني، فكم جاءت لتؤنسني
نعم الأنيس جمالٌ يكتسي صبراً حسن الصحاب فهادي الخلق أرشدني
إني لأبغي جزاءً من مخلّصنا جزاء ربي من الجنات والعدَنِ
يا رحمة الله أنتِ كل مطلبنا فأتي إلينا بلقيا الأهل والوطنِ

هذه القصيدة من كلمات الأسير: يحيى الحاج حمد

(خارطة فلسطين بمواقع السجون)